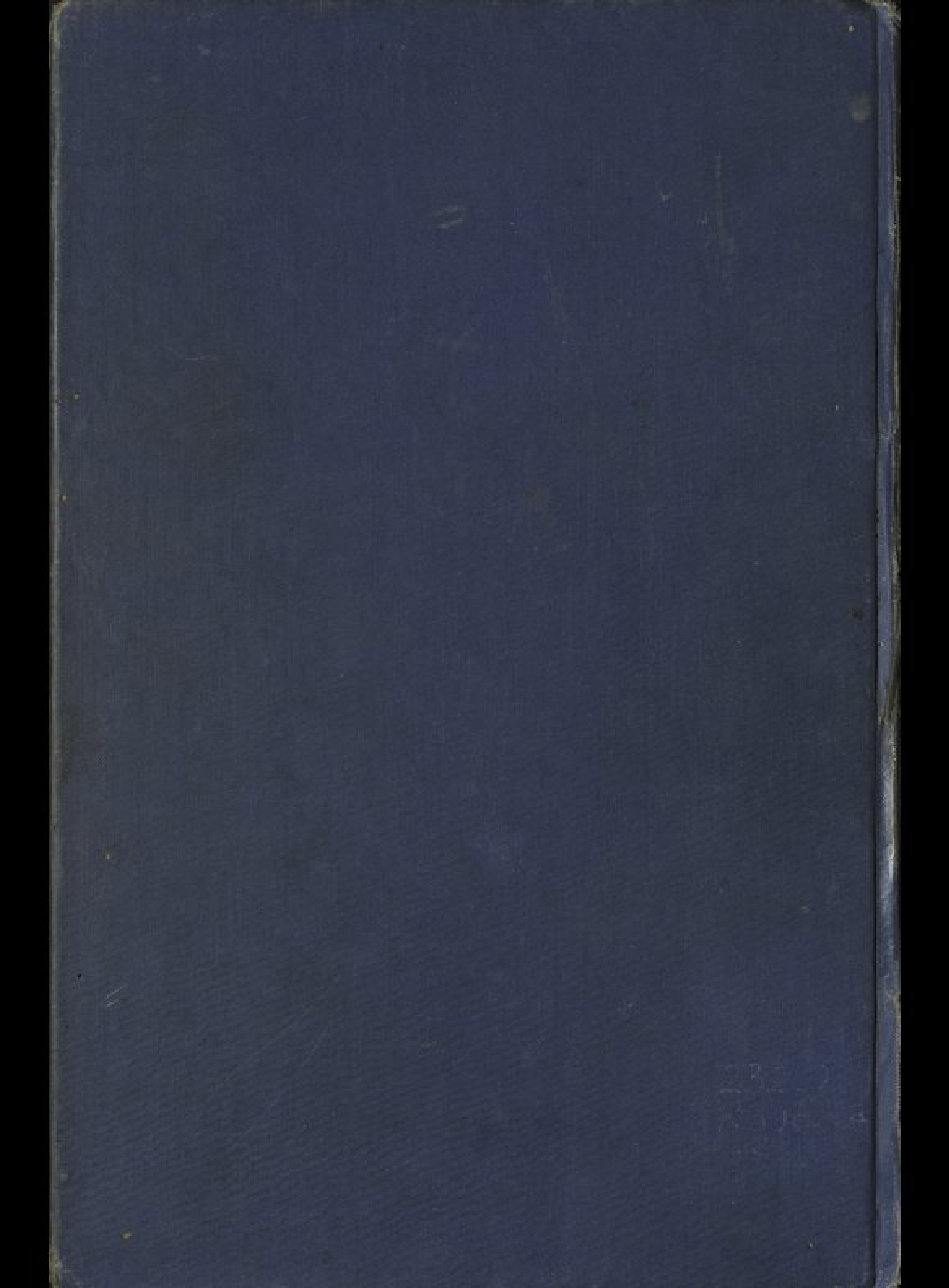
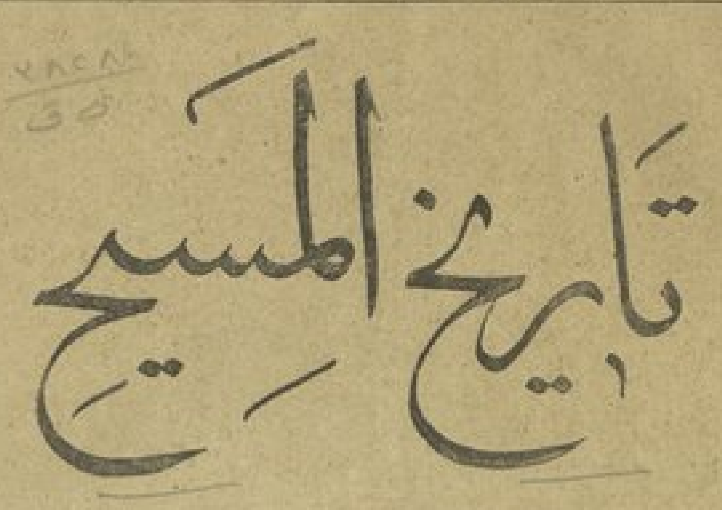


ثمن النسخة الواحدة ٢٠ غرشاً صاغاً



تاليف الفيلسوف المؤرخ (ارنست رنان)

الذي كان الغلاة من الاكليروس يقاومونه في حياته كما يقاومون تولستوي اليوم

ملخص تلخيصاً يبقى معه موضوع الكتاب ويذهب به ما لا تروق مطالعته وذلك كما فعل رنان في المختصر الذي لخص به كتابه هذا الغرض تاريخي ادبي اراد به اطلاع عامة القراء على مبادئ يسوع الحقيقية وجمال حياته لا البحث الديني فضلاً عن تاريخ الوسط الاجتماعي الذي عاش فيه يسوع ووصف البلاد التي نشأ فيها مما لم يُنشر قبل اليوم باللغة العربية

بقلم

فرح انطون

منشئ مجلة الجامعة

« وكنتِ معتقدة بانه اذا خيف عليه من حكم الرجل الطائش »
« الفكر الضيق الصدر فان كل ذي نفس متمسكة بالدين تمسكاً »
« حقيقياً لا بد ان تفضي بها قراءته الى الرضى عنه والسرور به »
« كلام لرنان في المقدمة عن كتابه هذا مخاطباً اخته التي اهداها اياه »

الاسكندرية ٢٠ اغسطس سنة ١٩٠٤

مطبعة « الجامعة » بالاسكندرية بباب رشيد



السيد المسيح

على اتان داخل الى اورشليم في احتفال عظيم قبل الصلب وهو عيد الشعانين

الباب الاول

مقدّمة المعرّب

(الغرض من تعريب هذا الكتاب)

لكل علم وفن طريقان مشهوران . الطريق الاول (طلب الفن لذاته) بصرف النظر عن نتائجه اذ لا غرض من هذا الطلب سوى ترقية ذلك الفن والبلوغ الى حقيقته . والطريق الثاني (طلب الفن لفائدته الاجتماعية) اي تطبيقه على المجتمع البشري للاستفادة به وتحسين احوال الهيئة الاجتماعية

ولما كتب الفيلسوف رنان كتابه « تاريخ يسوع » هذا سلك فيه الطريق الاول قال في مقدمة كتابه (تاريخ الرسل) بعد صدور تاريخ يسوع ما نصه

« ولقد كتب اليّ بعض الناس من كل صوب يقولون « ما غرضك من هذا وماذا تريد به » فانا اجيبهم بان غرضي هو كغرض كل مؤلف يكتب في التاريخ . ولو كان لي عدة اعمار لا عمر واحد لوقفت احدها لكتابة تاريخ الاسكندر المكدوني والثاني لكتابة تاريخ آثينا والثالث لكتابة تاريخ الثورة الفرنساوية والرابع لكتابة تاريخ جمعية سان فرنسوى . واي غرض يكون لي اذا كتبت هذه الكتب ؟ لا يكون لي من غرض سوى وجود الحقيقة واحيائها واعادة ذكر الحوادث الكبرى التي حدثت في الزمن الماضي بقدرما يمكن من الصدق والتدقيق »

وقال في صلاته على الاكروبول (١) التي هي اشهر ما كتبه مخاطبا بالاس آثينا الاهة الحكمة عند اليونانيين وهي مرسومة بجانب رسمه :

« ثم انك لا تعلمين كم صارت خدمتك صعبة في الارض (٢) فان كل استقامة ذهبت منها . وقد ملك السكيثيون العالم ولم تبقَ فيه جمهوريات مؤلفة من اناس احرار

---

(١) راجع الجامعة الجزء الثامن السنة الرابعة

« ٢ » يعني خدمة العلم الحر المطلق من قيد المداراة والتستير

بل كل ما فيه ملوك خرجوا من دم ثقيل . جلالات لو وقع نظرك عليهم الضحكت منهم . وكذلك مدعون ثقلاء يسمون (خفيفي الرأس) كل من يخدمك . وقد تألف من كل الصغائر والدنايا عصبة طوقت العالم بلفائف من رصاص تكاد تخنق النفوس . حتى الذين هم انفسهم يخدمونك كم هم يستحقون شفقتك . هل تذكرين ذلك المكدوني الذي جاء منذ ٥٠ عاماً وحطم هيكلك بالمطارق ليحمله الى «طوله» ؟ ان جميع الذين يخدمونك اليوم يصنعون صنعه . . . فلقد كتبت بحسب القواعد التي تحبينها ايتها الالاهة تاريخ حياة الاله الشاب الذي خدمته في صباي فعاملوني معاملة أفيميروس . وقد صاروا يكتبون لي ويسألونني ماذا اقصد بذلك . فكانهم لا يرون فائدة الا في ما يثمر لهم ثمراً مادياً . ولكن يا ايتها السماء اسألك لماذا يكتب الناس تواريخ الالهة . اليس ذلك لتحبيب ما فيهم من الروح الالهي الى الناس واظهار ان هذا الروح لا يزال حياً في قلب الانسانية وسيبقى فيه الى الابد»

فيتضح مما تقدم ان غرض رنان من كتابه كان « طلب الفن لذاته » وهو الطريق الاول . الا انه اضطر بعد ذلك الى سلوك الطريق الثاني وذلك في المختصر الذي خصه لعامة الشعب والقراء . والمعرب قد حذا حذو المؤلف في تعريب هذا الكتاب

وقبل ان نأتي على ذكر شيء من الاغراض التي خصنا هذا الكتاب من اجلها وكتبنا هذه المقدمة لبسطها نفكه القارىء اولاً بتاريخ تخليص الكتاب

لما كنا منذ نحو ١٢ سنة ندرس كتب مشاهير الكتاب والفلاسفة في اوروبا كنا نعثر فيها كثيراً على ذكر رنان وذكر كتابه تاريخ يسوع . فاوجبنا على نفسنا ان لا نطالع كتاباً لرنان ولا نقف على كتابه هذا الا بعد زمن . ذلك لاننا كنا نجهل رنان ومبادئه ونتصوره بعكس ما هو في الحقيقة . وبعبارة اوضح نقول ان اعتقادنا فيه كان كاعتقاد الذين ينفرون اليوم منه دون ان يدرسوا مبادئه ويقرءوا كتبه . فمنذ سنتين دخلنا احدى المكاتب في شارع شريف باشا لنرى ما فيها من الكتب التي تبحث في تاريخ الاندلس لاننا كنا نشتغل بتاريخ تلك البلاد في مقالة طويلة نشرناها في الجزء الاول من الجامعة السنة الثالثة . فبينما نحن نقلب الكتب وقع في يدنا كتاب صغير بقدر الكف وعنوانه « تاريخ يسوع بقلم رنان» وثمنه فرنك و ٥٠ سنتيماً . فابتسمنا حين وقع نظرنا على هذا العنوان وابتعنا الكتاب وذهبنا . غير اننا ما قلبنا بضع صفحاته حتى علمنا مما كتبه رنان فيها انه مختصر كتابه الكبير وانه اختصره للشعب وعامة المؤمنين وحذف منه كل ما لا يروقهم مطالعته «١» فعدنا الى صاحب

(١) هذا المختصر من الطبعة السابعة والثلاثين اي انه طبع ٨٧ مرة وقال رنان في مقدمته ان غرضه من اختصاره وحذف كل ما لا يروق المطالع المسيحي منه اطلاع عامة الشعب على اجمل صورة ليسوع .

المكتبة واوصيناه بان يستجلب لنا النسخة الاصلية . ولما وردت علينا اخذنا في مطالعتها . وما اوغلنا فيها حتى انقلب رأينا في رنان اشد انقلاب ودهشنا مما رأيناه في كلامه من الاعجاب والثناء الذي لا حدَّ له على شارع الدين المسيحي وعلى روح الدين نفسه

ومنذ هذا الحين تركنا كل شغل تقريباً وانقطعنا الى قراءة كتاب رنان . فشغلنا عن الجامعة وادارتها وعن كل مطالعة غيره . وكنا نحمله حيثما ذهبنا لاننا لم نعد نستطيع فراقه . وهكذا زار المنشية حيث قرأنا فصلين منه تحت اشجارها في يوم احد . وزار المكس حيث قرأنا عدة فصول فوق الرصيف البعيد الذي وراءها على نغم الامواج المزبدة . وزار ساحة «وابور المياه» وراء محرم بك خصوصاً احدى الاشجار المنفردة المشرفة على الاستحكامات هناك حيث يحلو للجالس تحتها في ذلك الهدوء التام امام الخضرة والزروع في ذلك الوادي الذي حلت فيه مظاهر السلم الزراعي محل التحصين الحربي بانه في البرية والخلاء . وقد تنقلت حروفه حتى في الشاطىء البعيد وراء سان ستيفانو . وكثيراً ما مرَّت خمس ساعات متوالية ونحن غارقون في قراءة رنان الساحر ذاهلين عن كل شيء حتى عن ميعاد الغذاء

وهنا وصلنا الى السبب الذي دعانا الى تعريب هذا الكتاب .

لم نفرغ من مطالعة كتاب رنان حتى وجدنا اننا اصبحنا نعتقد ان من واجباتنا نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية . وكان ذلك لاسباب جزئية واسباب كلية . اما الاسباب الجزئية فمنها اتحاف اللغة العربية بكتاب لم تبقَ في العالم لغة راقية الا وتُرجم اليها . ومنها حلاوة كلام رنان واسلوبه البسيط في الكتابة والتأليف . وهذا الاسلوب معروف في فرنسا «باسلوب رنان» وهم يعنون بذلك البساطة والجلاء والحلاوة والمتانة مجموعة معاً . فمن حق الكاتب العربي في (طور الانتقال الادبي) الذي نحن الآن فيه في الشرق ان يوجه الانظار من هذا الوجه الى ما يعدُّه الافرنج ارقى لغة عندهم للعلم والادب والكتابة — نعني لغة رنان

ولكن هناك سبباً اهمَّ من هذه الاسباب كلها . فان «تاريخ يسوع» وحياته انما هو عبارة عن بحث في اساس «المسألة الاجتماعية والمسألة الدينية» . ولقد تعودنا منذ امسكنا القلم في الشرق ان ننظر الى صناعة القلم لسوء الحظ نظراً جدياً ونعتبرها عملاً رسمياً . وكلٌّ يعلم اننا بعد اشتغالنا بها عدة سنوات وتضحية ما ضحيناه في سبيلها لم نجمع منها بعدُ ثروة روتشيلد ولا وجدنا الارض مفروشة ورداً في كل طريقنا . فصناعة هذا شأنها في الشرق تكون تعباً عظيماً وعناء عقيماً اذا ضُغط على حريتها وفائدتها الادبية كما هو مضغوط على فائدتها المادية . وحينئذٍ يكون الاشتغال باية صناعة خيراً من الاشتغال بها . ولذلك عزمنا على

ان تكسر كل قيد غير قيد العقل والحكمة وتشتغل بما ترى نشره ضرورياً مهما قام في سبيله من العثرات . فاما ان يكون القلم حراً مطلقاً يخط ما يوحى اليه واما تركه الى صناعة عناؤها اخف من عنائه وكسبها اكثر من كسبه والتعرض لسخط الساخطين ونقد الناقدين اقل فيها منه في صناعته

ومن اجل هذا وجدنا بعد مطالعتنا كتاب رنان اننا اصبحنا نعتقد ان من واجباتنا نقله الى اللغة العربية كما قلنا آنفاً . وقد يبتسم لهذا القول الذين يحتقرون صناعة القلم ولا يرون فائدة لغير المادة والقوة المادية فنحن لا نجيب على هذا الا بكلمة واحدة وهي اننا لم نصل بعد الى الطور والعمر الذي يشك صاحبه فيه بروح التقدم بعد اختباره حيوانية البشر ووقوف هذه الحيوانية في سبيل كل ارتقاء وكمال وجمال في العالم . ونحن نحمد الله على ذلك . واذا كنا في المستقبل لسوء الحظ سنصل الى ذلك الاعتقاد ونشك بفائدة العلم والادب في تحسين حال الانسانية في الارض وابلاغها طور الكمال في مستقبل بعيد او قريب وتعزيتها وتسليتها في اثناء سيرها الى ذلك الطور فمنذ الآن نقول اننا سنخسر والاسفاه اعظم خسارة وهي (الايمان الادبي) . ومن الآن الى ذلك الزمن دعونا نخرج ما نستطيع اخراجه بهذا الايمان اذ بدونه يستحيل على الكاتب الذي (يطلب الفن لذاته) ان يفعل ما يجب فعله فيه

فنقلنا (تاريخ المسيح) الى اللغة العربية كان اذاً بناء على هذا الايمان . وغرضنا منه توجيه الانظار في الشرق الى اساس حياة يسوع نعني الفكرة الاجتماعية والفكرة الدينية اللتين خلقهما يسوع وصرف حياته في نشرهما وتاييدهما واحتمل الموت والعذاب والاهانة في سبيلهما . وهنا ايضاً لا يعدم هذا الكلام من يهز كتفيه حين سماعه ويضحك قائلاً : اين عصرنا من عصر يسوع وهيئتنا الاجتماعية من الهيئة في زمن يسوع . فنجيب لا تتسرعوا في الحكم فان المبداء الذي وقعت حوله تلك المعركة الهائلة بين يسوع واعدائه عند اسوار اورشليم منذ ١٩ قرناً لا تزال الى اليوم قائمة قاعدة في كل مكان بين هذه الحيوانات الناطقة التي تدعى بشراً . وهي المسالة الابدية التي لا يعلم احد غير الله كيف يكون حلها في مستقبل الانسانية

انظروا الآن الى العالم نظراً مجرداً تجدوا ذلك العراك حول ذلك المبداء واضحاً كل الوضوح . ففي العالم الاجتماعي لا يزال المال « الهاً ثانياً » بل ان عصر المسيح لم يرَ عشر معشار ما رآه هذا العصر الاحتكاري من سلطنة المال وتفرده . فنحن الآن في عصر كل شيء فيه يباع ويشرى بالمال حتى الضمائر والعقول . ولا تزال ارزاق الامم تجتمع في ايدي

قليلة تحت ستار قانون متساهل والباقون من الامم عبيد ارقاء لاهل المال عبودية أثقل من العبودية الشخصية القديمة . فملايين من البشر يتمرغون في حمأة الفقر والضيق والشقاء وفرد واحد يحشد في خزائنه ملايين . ولا تزال القصور كلما ارتفعت وضخمت وامتلأت تحفاً وحلىً وزخارف تفرغ نفوس اصحابها من كل جمال وعلو وحلية وتزداد صغاراً وغلظة وكبرياء وازدراء لله والناس وطمعاً في ان يكون لها سلطة على كل شيء في الوجود حتى النفوس . وفي اثناء ذلك تفرّ منها البساطة والطبيعة والاخلاص والصداقة والالفة والفضيلة وتأوي الى اكواخ الفقراء والمساكين لعلها تجد فيها ملجأ . فتجد هنالك ضيقاً من وجه آخر . وهكذا تفسد الانسانية بهذه الحالة فساداً مزدوجاً . فساداً فوق بكثرة الرزق كثرة فوق الحاجة وفساداً تحت بالحاجة الى الرزق .

هذا من حيث الامر الاجتماعي . اما من حيث الامر الديني فالخلل فيه ليس باقل مما تقدم . فلا يزال الشيطان الساكن في جوف الانسان — اي شهوته وهواه — يغريه بخرق كل نظام لتقديم مصلحته على كل مصلحة . لا يزال في الدنيا كهنة وفريسيون يتخذون المبادئ سبيلاً الى المصالح فيلثمون ذيول الاغنياء والكبراء ويهملون الفقراء مع انهم سواد الامم . لا يزال الدين مقيداً بالهياكل والكهنة والظواهر فيه مقدمة على البواطن؛ وبعبارة اخرى نقول لا يزال اصل الدين (الذي هو محبة الله والناس ونقاء العواطف) معدوداً امراً ثانوياً واتباع الفروض والسنن الموضوعة امراً جوهرياً اصلياً . وهكذا يكون الدين سبباً للفساد بدل ان يكون سبباً للصلاح . اذ لا تكون حينئذ قيمة الانسان ما يحمله في قلبه من الجمال والخير بل ما يحمله على شفتيه من الكلام الفارغ . ويصير الدين سلعة هينة أكثرهم اقتناء لها صغار النفوس وضيقو الصدور

فهذه الحالة « الاجتماعية والدينية » هي الصخرة التي صدمها يسوع فهدمها في النفوس مدة ولكن الزمان عاد فاعادها . بل ان الزمان زاد عليها امراً اشد هولاً منها . فقد قام بين البشر قديماً وحديثاً قوم يقولون ما خلاصته . ما هو الحق والحقيقة التي يُدعى اليها . ان هي الا وهم وخيال . فالقوة هي الحق . فمن غلب سلب ومن عزّ بزّ . ولذلك يلزم عن هذا ان يكون في المجتمع البشري اقوياء وضعفاء . اغنياء وفقراء . اسياد وعبيد آكلون ومأكولون . وهذه سنة طبيعية وجدت مع البشر ولا تفارقهم حتى يفارقوا الدنيا . فما الفائدة اذاً من هذه التخيلات والتصورات التي يصورها علماء الاديان والآداب . ان الانسان وجد ليعيش في الارض ويتمتع بتراه . فعليه ان يقبل هذه الحياة كما هي ويكتفي بها . والا كان ابله احمق يترك الحقيقة ويتمسك بالخيال . واذا اقتضى الامر ان يعدو على غيره

ويغشه ويغدره ليجر المنفعة لنفسه فهو معذور اذ عليه قبل كل شيء ان يعيش ويجمع ما يعيش به برخاء وسعة . فالثروة هي الغرض من الحياة . اما الدين والآداب فهي امر حسن للشعب . اذ بها يكبح جماحه ويمنع من التطاول الى ما فوقه فتحفظ بذلك راحة الاغنياء والكبراء . ولذلك كان نابليون بونابرت يعجب كل الاعجاب بمبادىء برناردين دي سان بيير . فنادوا اذاً بين الشعب بالمحبة والرفق والاتضاع وانكار الذات وحب الفقر وكراهة الثروة فان هذا يسرنا اذ فيه مصلحة لنا . اما نحن فدعونا وهذا الذي تسمونه محبة وانكار ذات . فاننا لا نريد ان ننكر ذاتنا لاحد . ومن اجل اي شيء ننكر ذاتنا . وما هي المكافأة التي ننالها مقابل هذا الانكار . تقولون الحياة الاخرى . اما هذا فدعونا منه . ومتى وصلنا اليه نبحث فيه . فما نحن ممن يبيعون العاجل بالآجل . خلقنا لنعيش فنريد ان نعيش . وكفى

تلك هي الآفات والشكوك التي تخرب اليوم اساس الهيئة الاجتماعية وتهدم فيها كل نظام وجمال ونقاء . والتي وجد يسوع يومئذٍ اكثرها في طريقه وحمل عليها حملاته المعروفة . وبذلك لا يكون تاريخه عبارة عن مسألة دينية فقط بل ومسألة اجتماعية ايضاً كما قدَّمنا . بل هو عبارة عن تاريخ اعظم حرب اثيرت على تلك الآفات ولذلك قلنا اننا نقلنا هذا الكتاب من اجلها . وليس هنا مجال الكلام على الطرق التي رام يسوع مداواة هذه الآفات بها فان دواءه مبسوط في اثناء الكلام على حياته في هذا الكتاب . ولكننا ندلّ على الفرق بين مبدإه ومبدإ تلك الشكوك بمذهبين فلسفيين يتقاسمان العالم منذ نشأته . فمذهب تلك الشكوك مذهب « النفعيين » Utilitaires او Réalistes ومذهب يسوع مذهب الكمال الفكري Idéaliste فالمذهب الاول يقضي بطلب الفائدة قبل كل شيء اذ لا يعبأ بشيء غيرها والمذهب الثاني يقضي بالتمسك بالمبدإ وبقاء العواطف قبل كل شيء فاذا تعارض المبدأ والفائدة تُداس الفائدة حرصاً على المبدإ . وقد قال رنان انه لم يقم في الارض احد داس الارض واشياءها بالقوة التي داسها يسوع بها .

اذاً كل المتعبين وكل الحزانى وكل الثقيلي الاحمال (كما كان يقول) لا يزالون يقدرون حتى اليوم ان يستمدوا من روح يسوع ما يحتاجون اليه في هذه الدنيا من القوة لاحتمال حياتهم والصبر على انتصار الباطل في الارض وسيادة الشر والشراهة والاثرة والدناءة فيها . ونحن يسرنا ان نوزع هذه القوة ونوجه الانظار اليها في زمن سادت به المادة وفروعها سيادة هائلة ونُسي من اجلها الله والناس ويسوع وديانته الا ظاهراً . اجل يسرنا ذلك لاننا لا نعرف لصناعة القلم غير ثلاث وظائف وبدون احداها لا تكون شيئاً مذكوراً .

الاولى الاختراع والاكتشاف وهي في هذا الامر شريكة المعمل الكيماوي ورفيقته . والثانية نقل المعلومات الصناعية للصناع والزراع والتجار لترقية صنائعهم بها . والثالثة بث روح النشاط والقوة والتعزية ومكارم الاخلاق في نفوس الامم خصوصاً الضعفاء منها لينهضوا فلا يدوسهم الاقوياء . وهذا الامر عندنا اهم من الامرين السابقين لانه مصلح اخلاق البشر ومعطر ريح الارض ومسلي الانسانية ومعزيها . وليس يساوي منفعته عندنا شيء غير بث روح العدل والشهامة في نفوس الاقوياء ليعرفوا ما يجب عليهم لباقي الناس وللامة التي تتركهم يجمعون قوتهم منها . فكمال الفعل الاجتماعي اذاً انما هو في تقوية نفوس الضعفاء واضعاف نفوس الاقوياء ليلتقي الفريقان ويتساويا امام الله والناس . وهذه نفس الروح التي بثها يسوع في حياته الجميلة .

ولقد قام بعد يسوع في العصر الاخير قوم متحمسون لمبادئهم اشد تحمس ومقتنعون بصحتها اشد اقتناع ووقفوا قواهم وحياتهم لمحاربة الفساد الذي حارب به يسوع بحماسة كحماسته . ولقد اصبح لهم في اوروبا من الصولة والسلطان ما ارجفوا به العروش والقصور وصرفوا الى الشعب وضعفاء الامم قسماً عظيماً من القوات والخيرات والسلطات التي كانت في ايدي الطبقات القوية . وهذه السنوات الاخيرة تسجل لهم في كل يوم فتحاً جديداً وتقدماً عظيماً . ولا ريب ان القارىء قد علم اننا نعني بهؤلاء القوم جماعة الاشتراكيين . الا ان هؤلاء القوم قد اخطأوا خطاء عظيماً مسوقين اليه بمبادىء الغلاة منهم . ونريد بهذا الخطاء «تركهم الفكرة الدينية» قال رنان الذي كان في حياته من خصومهم في كتابه هذا ما نصه) وسيبقى «مبدأ ملكوت الله» اعظم المبادىء المحركة الى طلب الاصلاح في كل مكان الى ما شاء الله . اما الاشتراكيون الذين يطلبون اصلاح الارض اليوم فانهم يبقون عاجزين عن انفاذ اصلاحهم مالم يلجأوا الى افكار يسوع نفسها ويعملوا بها . فانهم يطلبون بناء على مبداء مادي غليظ امراً مستحيلاً وهو جعل جميع الناس سعداء ولذلك لا ينجحون وانما ينجحون متى عملوا بقواعد المسيح وهي ابتغاء اعلى صورة للكمال في الارض لا لخيرات الارض . وهذا المبداء يوجب على طالبي اصلاح الارض التنازل عنها وعن خيراتها» «الباب الرابع الصفحة ٣٢» وقال في كتابه اعمال الرسل في اثناء كلامه على معيشة الرسل والمسيحيين الاولين» وهنا شبه عظيم بين هذه الحالة وحالة بعض المبادىء الاشتراكية التي قامت في هذا العصر . ولكن الاشتراكية المسيحية كانت مؤسسة على عاطفة دينية واما الاشتراكية العصرية فهي منفصلة عن هذه العاطفة . وظاهر كالشمس للعيان ان الهيئة التي يقدم لها افرادها رأس مال ولا ينتظرون منها ربحاً على نسبة هذا المال الذي وضعوه

فيها او العمل الذي يعملونه في معاملها لا يمكن ان تُبنى الأ على عاطفـة دينية توجب على الانسان انكار ذاته الى هذا الحد قياماً بواجبات دينية »

ومما مرَّ يتضح ان اشتغالنا بهذا الكتاب بصرف النظر عن المسالة الدينية كان اشتغالاً باساس المسائل الاجتماعية

الى هنا كان كلامنا عن المسالة الاجتماعية فلنتكلم الآن عن المسالة الدينية

وكل ما نقوله في هذه المسالة اننا لا ندخل فيها قطعياً . فاننا ما نقلنا هذا الكتاب لاثباتها او نفيها لان الاثبات والنفي فيها من باب «طلب الفن لذاته » ونحن قد صرحنا غير مرة اننا لم نعرب هذا الكتاب الا لغرض تاريخي اجتماعي

على اننا رغبة في ان يكون الاخلاص التام رائداً لنا في ما نسطره في هذه المقدمة احببنا ان لا نغفل الجواب على الاعتراضات التي يُعترض بها على هذا الكتاب ونحن نذكرها هنا واحدة واحدة

اولاً — قولهم ان تعريب هذا الكتاب يشكك المسيحيين في لاهوت المسيح . وانه يجب عدم البحث في هذه المسائل

والجواب على هذا للذين يفهمون نبسطه ثانية وهو اننا لا نتعرض لهذه المسالة قطعياً . لانها عندنا فرع والمسالة الاجتماعية والمبادىء الانجيلية اصل . وقد صرحنا بمثل هذا القول في « اوروشليم الجديدة » في الخطبة على الجبل عند ردنا فيها على الذين اتهموا (الجامعة) بما راموا اتهامها به في جريدة البشير التي يطبعها اليسوعيون في بيروت ومجلة المباحث التي تطبع في الاسكندرية . ونحن نقول بكل حرية ان الخوف من البحث في حياة المسيح خوف في غير محله اللهم الاَّ اذا كان الخائفون من ذلك يعتقدون بوهن الموضوع فيخشون عاقبته . اذ ما الباعث على هذا الخوف اذا كان الموضوع قوياً يحتمل كل نقد وجدال ويخرج منه صافياً نقياً خروج الذهب من النار كما خرجت روح يسوع من قلم رنان (١) . ثم اي علاقة بين لاهوت المسيح و بين البحث والنظر العقلي . فان هذه المسالة فوق العقل بدرجات . وقد قال العالم المؤرخ الاب لوازي صاحب كتاب «الانجيل والكنيسة » الذي منعت الكنيسة قراءة كتبه في هذا العام« ان مسالة لاهوت المسيح لا تُدرك الاَّ بذات القوة الغير العقلية التي يدرك بها الخالق سبحانه »

(١) راجع الفصل الثالث والعشرين في الباب الرابع ففيه حكم رنان على (نتيجة عمل يسوع)

فاي ضرر في ان يضع الباحث في تاريخ يسوع هذه المسألة خارج البحث والعقل معاً . نحن نعلم انه لا ضرر من ذلك قطعياً . واذا قيل ان ذلك شك فالشك كما يقول « العارفون بالله» اول درجة من درجات الايمان . وانه ليدهشنا تعب الرصفاء والآباء في حملتهم على الجامعة في مسألة لم تجادل فيها بحكمة بدل ان يساعدوها على ما تدعو اليه من محاربة الاثرة في البشر والفساد الاجتماعي والشراسة والدعوة الى الرجوع الى روح يسوع نفسها . فان الدين في الارض الآن لا خطر عليه من الباحثين في روح يسوع لتحليلها ومعرفة مبادئها . فان هذا يجدد الدين ويحييه ويقوي الايمان في العالم . وانما الخطر الحقيقي هو في المبادىء المادية التي تعتبر الروح الديني ومؤسسيه وهماً وخيالاً والمبادىء الدينية التي تتخذ آلة ووسيلة للمصالح المادية . الخطر الحقيقي في الكلام الذي تقدم « الصفحة ٦ » وهو قول القائل (نريد ان نعيش وكفى) فبدل ان تصرفوا قواكم عبثاً في مصادمة من هم في جانبكم اصرفوها في مقاومة عدوكم هذا . فان الخطر من هذا العدو ليس واقعاً على لاهوت المسيح فقط بل على كل شيء : على الله والدنيا والاخرة والاديان كلها والارض والسماء . اما يسوع فلا يناله الا رشاشة منه . فهل تسمح لكم ضمائركم بترك المسائل الكلية والتمسك بمسألة جزئية لا ينازعكم احد فيها . نحن لا نظن ذلك . اللهم الا ان يكون لكم مصلحة خصوصية فيه . كالخوف مثلاً من مبادىء يسوع الحقيقية لانها صارت هي والمبادىء الحالية التي يتبعها تلامذته الاعزاء على طرفي نقيض

اذاً فمصدر الخطر ليس في البحث في تاريخ المسيح ولو بحثاً دينياً بل في التيار المادي الذي يجحد كل شيء . ومتى سلم من هذا الجحود «المبدا الاول» كما يسميه الفلاسفة وثبتت له الصفات التي يجعلها المليون له خصوصاً القدرة على كل شيء التي هي ام المسائل كلها فقد صارت مسألة لاهوت المسيح امراً سهلاً . لان قدرة الله على كل شيء يمكن ان تفعل كل شيء . وحينئذٍ يصح قول شاتوبريان في كتابه « روح المسيحية » (ماذا يمنعنا من الاعتقاد بان الله الذي هو شمس الوجود قد صدر عنه شعاع نور الى الارض فتكونت منه نفس يسوع . هل الله يعجز عن ذلك » قلنا ومن هذا يعلم رصفاؤنا الاجلاء اننا لا ننازعهم في هذا الامر اذا كانوا يفهمونه كما نفهمه ويفهمه جمهور العقلاء

ثانياً — قول بعضهم ان المسألة الدينية في الشرق مسألة وطنية . لانه كما قال منذ ثلاث سنوات المسيو دلكاسه ناظر خارجية فرنسا في منبر مجلس النواب حين دفاعه عن رهبانيات الشرق كل طائفة في الشرق تعتبر الدين سياجها وجامعتها وتعلق به امالها في المستقبل . فالذي يمس الدين

فيها يكون كمن يحارب آمالها

قلنا ان ذكرنا هذا الاعتراض هنا يدل على الحرية والاخلاص الذي اردنا الردّ به على هذا الموضوع · وقبل كل شيء نحصر هذا الموضوع في مركزه الحقيقي · فنقول ان هذا الاعتراض لا يصح الاّ في قطر واحد يهمنا وهو قطر الشام · اما القطر المصري والقطر الاميركي فلا شبه بينهما وبين قطر الشام في هذا الموضوع · فالاعتراض اذاً مقصور على طوائف الشام

ثم بعد هذه المقدمة التمهيدية ننظر الى مقدمة الاعتراض لنرى هل هي مصححة لنسلّم بصحة النتيجة التي استخرجت منها · فنجد انها مبنية على (مس الدين) اي ان الذي يمس الدين ويحاربه يضر تلك الطوائف اذ هو جامعتها الوحيدة وسياجها الوحيد · وهنا الخطأ في المقدمة · فان اظهار حقيقة مبادىء يسوع والانجيل والدعوة الى الرجوع اليهما تخلصاً من ثقل وسفالة المبادىء المادية التي تدير شؤون تلك الطوائف لهو تعزيز للدين الحقيقي واكرام له لا مس ولا محاربة · واذا كانوا قد اصبحوا يعتبرون مبادىء الانجيل نفسها خطر على المذاهب والطوائف فاخبرونا اذاً بربكم اين اصبحنا من الدين المسيحي ? وبعد هذا التحليل ننظر في القضية نظراً عاماً · فنستحسن من وجوه ماذكروه عن وجوب مراعاة مصالح الطوائف في جميع علائقها · ونقول هذا بكل حرية حتى لاولي الامر انفسهم اذ لا شيء يقوم لدى الامم مقام الحرية والراحة والعدل والامن التي هي من حق كل انسان وكل جمهور وليس تحت قبة السماء احد قادراً على ان يسلبه هذا الحق زمناً طويلاً · ولكننا نعلم ان الطوائف لا تستفيد شيئاً اذا زادت عدد ظلمتها ومستبديها · اننا نحترم اماني وآمال كل شعب وكل امة لا شعبنا وامتنا فقط ولكننا لا نطيق ان تتخذ الامة حماة لها فيجعل هؤلاء الحماة انفسهم متجرين بها · وهذا امر ظاهر كل الظهور · فان الامة ليست فقط افراداً منها بل مجموع الافراد اجمالاً · وكل فرد من افراد الامة كبيراً او صغيراً غنياً او فقيراً مساوٍ للفرد الآخر في الحقوق الطائفية العمومية بحسب المبادىء الانجيلية · والعناية بالصغار والفقراء والضعفاء مقدمة في شريعة يسوع على كل عناية · ذلك لانهم هم الانسانية الحقيقية التي تتعب وتعمل وتخدم وتحمل على ظهرها اعباء الدنيا كلها · ومع هذا فانك تجد في كل طائفة بضعة افراد مستأثرين بالنفوذ والسيادة والسلطان يتصرفون باملاك الطائفة واوقافها وارزاقها وجميع شؤونها تصرف المالك في ملكه والشعب كالانعام السائمة فقير ذو جاهل خاضع ذليل لدى مغتصبيه · ويشاب هذا الشعب رئيسه الروحي الذي يقول ان الله اقامه

لرعايته يتقرب من الاغنياء والكبراء طمعاً في مالهم ويهمل باقي الامة اذ لا يرجو فائدة منهم . فاين عيناك يا يسوع لترى هذه الحالة . ان تلامذتك يخونونك في كل يوم . وحينما يقوم قائم لاظهار فساد هذه الحال وتذكيرهم بمبادئك يصيحون ان هذا مضر بالطوائف . والحقيقة انه مضر برؤساء الطوائف وزعمائها الذين يمتصون دماءها لانه يفتح عيون الطوائف ويريها حقوقها و يعلمها ان تطالب بها

• فاذا كان المقصود من قولهم (ان الدين جامعة الامة وسياجها) هو ان تكون هذه الجامعة لمنفعة بضعة افراد في الامة فقط على ما تقدم فنحن لانتردد في ان نصرح باننا ممن ينبذون هذه الجامعة لانها ظلم وغش للامة . والظلم والغش ظلم وغش سواء كانا من الغريب او القريب . والضرر الذي يكون حينئذ من هذه الجامعة اضعاف فائدتها لان الامة كلها تكون تابعة لهوى بضعة من افرادها يتصرفون بها بحسب اهوائهم ومصالحهم . واما اذا كان المقصود من قولهم هذا جامعة مبنية على مبادىء يسوع نفسها اي (جامعة للجميع ترضي الجميع وتهتم بالجميع) فلا اعتراض عليها

قلنا لا اعتراض لنا على هذه الجامعة وقد اردنا بذلك انه لا اعتراض لنا عليها من هذا الوجه . ولكن لنا اعتراض عليها من وجه آخر

وهذا الاعتراض هو الرغبة في ان لا تكون الجامعة الدينية واسطة للبغض والنفار بين العناصر المختلفة . فان الانسانية اصبحت لا تقبل العواطف والمبادىء التي تعلمها البغض بدل الحب والشقاق بدل الوفاق . وليست هذه المسألة عندها مسألة عواطف ومبادىء فقط بل هي مسألة مصالح ايضاً . فان اتفاقها وتآلفها وتعاونها على مصلحة واحدة مشتركة اساس تقدمها وارتقائها . وبدون ذلك تبقى في وهدة الضعف والشقاء الى الابد . فاذا كانت الجامعة الدينية المذكورة آنفاً هي الجامعة التي كان يدعو اليها يسوع فتبنى على الحق والعدل بين جميع طبقات الامة وعناصرها . وتقبل كل انسان ولا تطلب منه غير الاخلاص وصفاء الضمير ونقاء العواطف وتعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فنعماً هذه الجامعة . واذا كانت بخلاف ذلك فلا بد من انحلالها اردنا ام لم نرد . اذ ما بني على غير الحق والعدل فهو مهدوم

نعم . الحق والعدل قبل كل شيء وفوق كل شيء . ولا يقوم شيء ويرسخ في الارض بدونهما الان الباني على ما عداهما كالباني على الرمال . قال المسيو اولار احد اساتذة فرنسا في خطبة القاها حديثاً في حفلة من المعلمين والاساتذة . (انني احب وطني ولكنني احب العدل والآداب والحق والعلم فوقه) بل ما لنا وللاستاذ اولار ففي طلعة البدر ما يغنيك عن زحل .

فان يسوع كان يعلّم مثل هذا التعليم . لانه كان يضع الفكر وحرية الضمير والاخلاص وطهارة المعيشة وحب القريب حتى الوثني والعشار فوق مبادىء الاحزاب وفوق وطنه وفوق دينه . استغفر الله لم يكن يضعها فوق دينه لان هذا هو دينه نفسه . ومن يعلم ما اذا كان لم يسمع الف مرة من مجادليه قولهم ان مبادئه تضر بالامة اليهودية لان الجامعة الدينية ضرورية لها تجمع شملها بازاء الرومانيين الذين كانوا متسلطين عليها . من يعلم ما اذا كان قلبه لم يقطر دما كلما كان يسمع هذا الاعتراض لوقوعه به بين امرين هائلين : اما انكار الفكر والحق والعدل واما انكار الوطن . فيا اكمة الجلجلة التي شهدت سفك ذلك الدم الكريم خارج اسوار اورشليم انت تعلمين ماذا كانت النتيجة واي امر فضّل الشهيد . ولو كانت لك عين تقرا في الصدور لقرات في قلبه الكريم قبل احتضاره ما خلاصته : ان الوطن والامة والانسانية والارض والحياة ـ كلها الا استثناء لا خير فيها ولا اسف عليها اذا كان بناؤها قائمًا على قتل الحق والعدل والفكر ترويجًا للاهواء الخصوصية والمصالح المادية الافرادية الدنيئة

فلا تقولوا اذًا بان هذه المبادىء تفرّق جامعة الامة وتحل عراها فانها لا تحل سوى عرى الجهالة والشراهة والاستبداد القديم والاغراض والاهواء . واذا كان في الجالسين في مقدمة الامة ورئاستها رجال كرام منصفون حقيقةً فانهم يرضون عنها ولا شك لانها هي المبادىء التي ترقي الامم وتجدد حياتها ونشاطها وبدونها لا تقدم ولا ارتقاء . ذلك لانها بمثابة منخل ينخل الامة فيسقط الرديء ويبقى الجيد . اما نبهاء الطوائف وادباؤها وافاضلها الذين لا مصلحة لهم في بقاء القديم على قدمه فنحن على ثقة من رضاهم عنها بما لدينا من براهين ودادهم وتنشيطهم . لانهم هم الدم الجديد الذي يرجى منه احياء الامة بنشاط جديد وعلم جديد وايمان جديد بفعل الفكر والعقل والعدل في التقدم البشري . وبايديهم لا بايدي غيرهم سينهدم العالم القديم في الشرق ويقام مكانه عالم جديد تكون جامعته (العقل والعدل والحق) فوق كل شيء . ثم هب ان هذه المبادىء (تحل) كما يقولون فالانحلال غير مقصور على طائفة واحدة بل يتناول كل الطوائف . والطائفة التي تخسر في هذا الانحلال اكثر من غيرها هي الطائفة السائدة الغالبة لان هذا الانحلال بهذه المبادىء بمنزلة التنازل منها عن امتيازاتها وسيادتها وتقاليدها . ولذلك يكون نصيب الطوائف المسيحية من هذا الانحلال نصيب الطوائف الاسلامية والاسرائيلية منه . الا ان خسارة تلك تكون اخف من خسارة هذه عند اولي الافهام والالباب . ولكن ما اضعف الامم واقربها من الانحلال الحقيقي والفناء الاجتماعي اذا كانت تعدُّ الفكر والعدل والحق تفرقةً وانحلالا . بل هي

والاسفاف تكون حينئذ متخلة طبعاً فلا شيء يجمعها ولا شيء يحلها

ان العالم قد زحف وتغير ونحن معاشر الشرقيين لا نزال في العصور الوسطى . ان الشعوب في الدنيا كلها قد ابصرت على نور الحقوق والواجبات البشرية ان هذه الحواجز التي توضع بينها وتعلها الانقسام والبغض وكرامة الانسان للانسان لا منفعة فيها الا لافراد معدودين في كل امة دأبهم اذكاء هذه النار لتبقى الشعوب تحت نيرهم منصرفة عن مصالحها الى مصالحهم . ولذلك انتبهت الشعوب وعلمت انه اذا كانت مصلحة بضعة افراد منها في هذا الانقسام والبغض فمصلحتها هي في الاتحاد والالفة والوئام . ولذلك نرى في اوروبا مثلاً العناصر المختلفة والمذاهب المتعددة والجنسيات المتنازعة تمد ايديها من فوق رؤوس رؤسائها وحكوماتها لتتصافح وتتحد رضي اولئك الزعماء والحكومات ام لم يرضوا . وهكذا لم يعد عدوهم ذاك الذي لا يدين بدينهم ولا يكون من جنسيتهم بل اصبح عدوهم اثرة حكومتهم وما ليّهم الذين يسمحون لبعض افراد بامتصاص دماء الشعب واستخدامه استخدام البهائم في تحصيل ثروتهم تحت ستار قانون يغض الطرف عنهم . فصار همهم محاربة هذه الاثرة في الحكومات والافراد معاً لاشراك جميع بني الانسان في خيرات الارض والسماء واصلاح احوالهم . فاين نحن في الشرق من اولئك الشجعان الاحياء . نحن في الشرق لا همّ لنا الا اذلال بعضنا بعضاً . فكأن كل حزب منا يريد ان يعيش في الدنيا وحده . ولكن هب يا صاح انك قدرت على ان تنبذ من الدنيا من تدعوه خصمك فهل يزول بذلك كل فساد من امتك ويذهب كل عدو لك . كلا فانه لا فساد كالفساد الاجتماعي الذي يقرض احشاء الامم ولا عدو كالاثرة في الحكومات والافراد تجعل الناس ارقاء بعضهم لبعض . فاذا نبذت عدوك الخارجي بقي في احشائك عدوك الداخلي . وضرر هذا اشد من ضرر ذاك . ولذلك ما فتئنا ننادي بتقديم الاصلاح الاجتماعي على الاصلاح السياسي لان ذاك اصل وهذا فرع . وكل امة يحدث فيها الاصلاح الاجتماعي لا تلبث من تلقاء نفسها ان تخلع نير الاستعباد السياسي . والاصلاح الاجتماعي في قدرة جميع الطوائف مسيحية او اسلامية او اسرائيلية اذ لا علاقة لا كثره رؤساء السياسة ولكن رؤساء الروح اي الدين . ومهما زعم الرؤساء الروحيون مسلمين كانوا او اسرائيليين او مسيحيين بانهم لا يقدرون على هذا الاصلاح العظيم في طوائفهم لان السياسة تمنعهم منه او لا تساعدهم عليه فان زعمهم هذا لا يدل الا على ضعفهم وقصورهم وعدم كفاءتهم لمناصبهم . ولو كان تسمع افكارهم هذه لما كان فعل شيئاً لان حالتهم الآن كحالته يومئذ بازاء الرومانيين

فما مر يتضح ان القول بحل الجامعة الدينية بهذه المبادئ قول مردود من اعظم وجوهه وهو النفع الذي من اجله انشئت تلك الجامعة · ذلك لان النفع نفعان · نفع وقتي ونفع مطلق عام دائم · ونحن لا نجهل نفع «الجامعة الدينية» الوقتي وفائدتها في جميع الامم في بعض اطوارها الخصوصية · فلكل واحد منكم ان يبقى خادماً جامعته وعاملاً لنفع قومه بها · فليبقَ المسلم ناصباً الجامعة الاسلامية في وجه اوروبا كآلة سياسية يحاربها بها وان اضر ذلك بداخليته · فليبقَ المسيحي متخذاً جامعته الدينية قوة له بين العناصر المسيحية المتزاحمة في بقعة ضيقة وسياجاً له في البلاد الاسلامية التي يلاقي فيها ضيقاً وضغطاً · فليبقَ الاسرائيلي متمسكاً بجامعته التي ربما كانت اقوى من الجامعتين السابقتين · نعم ليبقَ كل واحد في حزبه ووسطه وقومه وطائفته يدفع عنها الشر الذي يرد عليها من غيرها ويجلب الخير لها · فان هذا امر طبيعي بديهي لا جدال فيه · ولكن هذا (النفع الوقتي) ليس شيئاً مذكوراً في جنب «النفع المستقبل العمومي» في الزمن الذي تسقط فيه الحواجز من بين الشعوب لاشتراك مصالحهم ونقاء عواطفهم وقبض عقلائهم ونبهائهم على ازمة شؤونهم · والمبادئ التي تقولون انها تحل الجامعة الدينية انما هي في الحقيقة تمهد سبل هذا الزمن السعيد · فانتم تعملون للحاضر عملاً ضرورياً وهي تعمل للمستقبل عملاً ضرورياً · فاعملوا انتم في دائرتكم ودعوها تعمل في دائرتها · وكونوا على ثقة من ان هذا العمل قد بدت ثماره ونتائجه في الشرق بفضل العاملين فيه منذ ٥٠ سنة حتى اليوم وامتزاج روح الغرب بالشرق امتزاجاً شديداً · فكل من خالط النبت الجديد في العناصر المختلفة ورأى اشتراك نبهائها في الاميال والآمال وانعقاد اسباب الوداد بينها انعقاداً لا يكون الا بين الاخ واخيه يتحقق ان العالم القديم قد بداء ينهدم انهداماً · فاين ذهبت مخلفات الآباء والاجداد وآثار العصور القديمة ؟ اين ذهب البغض والنفار والعدوان من بين بني الانسان ؟ سقياً لك يا ارض مصر الكريمة فانك تفعلين عجائب وغرائب · ان زوبعة واردة اليك من السماء قد اخذت تكنس منك اقذار الماضي كنساً على نور العلم وضياء المساواة ولهيب نار الحرية · وانت يا ارض الشام لست باقل كرامة من مصر اختك · ولكن الاقدار تعاندك · فلتكن السماء برداً وسلاماً لك ولاهلك لكي يكثر فيك الذين يحكّمون عقلهم في هواهم ولا يتركون مساغاً للتفريق بينهم · وحينئذٍ يستفيد قومك وعلى الخصوص اضعفهم من ثمار هذه الدعوة السلمية ومن انصارها اضعاف ما يستفيدونه من جامعاتهم المختلفة

الى الذين كان يحبهم يسوع

هذا ما اردنا بسطه في هذه المقدمة · وقد آن ان نختم الكلام لنصل بالقارئ الى

الكتاب نفسه . الاّ انه خطر لنا قبل ذلك ان نهدي هذا الكتاب الى من يحمل اهداؤه اليه جرياً على عادة بعض المؤلفين . فاقمنا نفكر في ذلك يومين . وفي اليوم الثالث مررنا اتفاقاً في احد الشوارع من امام منزل لا نسميه . فابصرنا في بابه كاهناً جالساً بعظمة الى خوان وهو يمدّ يده بورقة الى جماعة فقراء امامه فيهم الرجال والنساء . ولكنه ما مدّ يده بالورقة نحو امرأة منهم حتى انحنت هذه المسكينة كأنّ شيئاً قصم ظهرها ورفعت يديها الى عينيها وصارت تبكي بسكوت وهدوء بكاء يفتت القلوب . فلمع حينئذٍ في فكرنا شيء كالبرق وقلنا الى هؤلاء نهدي الكتاب . الى الذين كان يحبهم يسوع وصرف حياته في خدمتهم واتخذ تلامذته ورفاقه منهم ثم صار خلفاء تلامذته اليوم يعذبونهم و يهملونهم

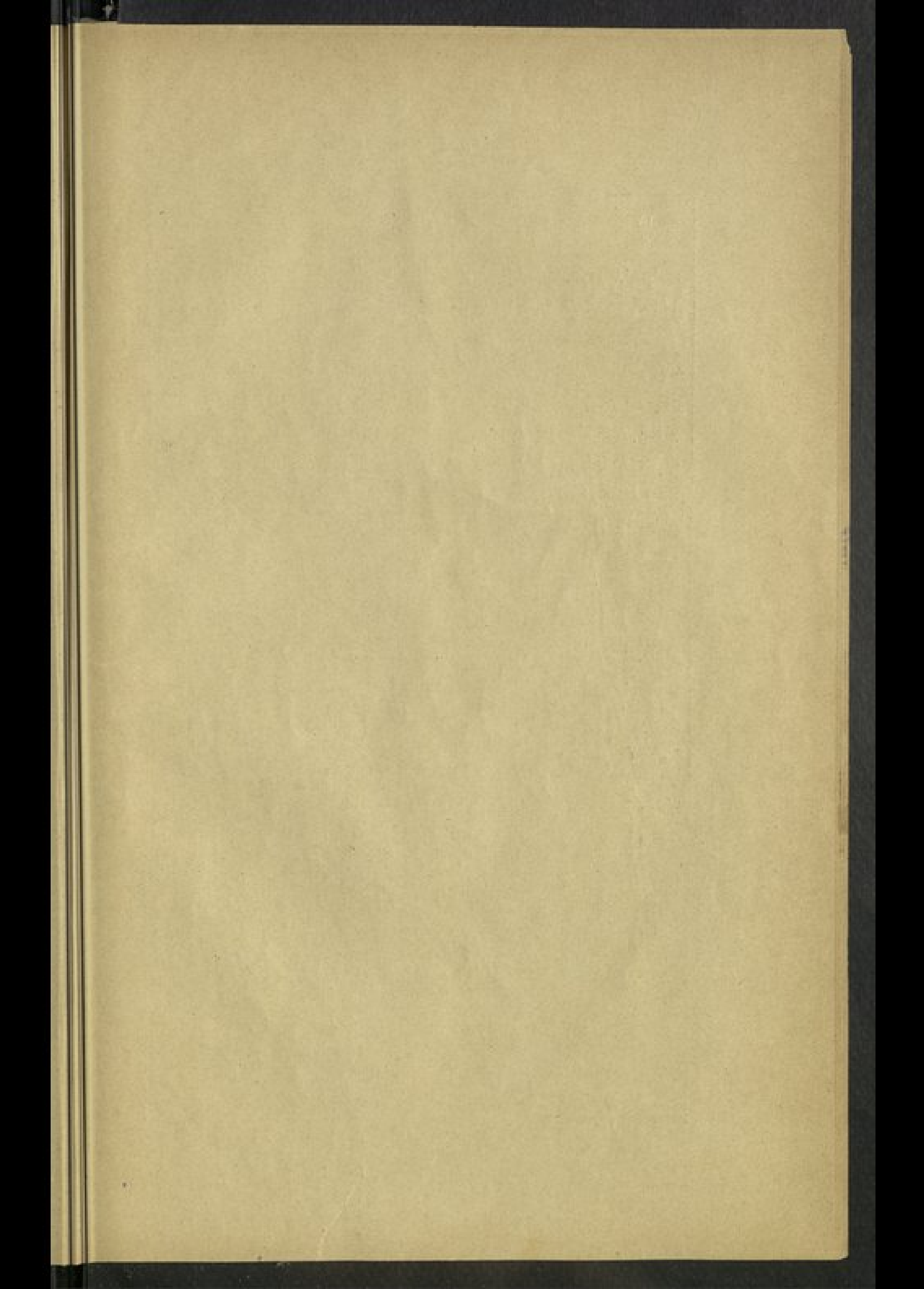
فيا ايها السذج القلوب الاتقياء الضمائر المنكسرو النفوس الذين يستغربون تنازع البقاء بين البشر و يستفظعونه . يا ايها الضعفاء الذين تهملهم الحكومات والرؤساء و يتركونهم في الاسواق والشوارع يعانون العري والبرد والجوع . يا ملايين العملة والمستخدمين النشيطين الامناء الذين يعيشون بشرف واجتهاد من عرق جبينهم وغيرهم يجمع الثروات الواسعة من تعبهم ودمائهم وهو جالس بمجانة وكبرياء على بساط البطر والكسل والتبذير في الامور التافهة الباطلة . يا اهل الفكر الذين لا تكتفي نفوسهم بشؤون الارض و يتطلعون دائماً الى السماء نحو الفلك الواسع الجميل يبحثون عن عالم افضل من هذا العالم — اليكم نهدي هذا الكتاب وان كان اكثركم لا يقرأونه . ففيه تجدون بين مشاق الحياة اليومية وفساد الاجتماع واثرة البشر ومصارعاتهم الحيوانية الدائمة — كوة منيرة مطلة على السماء من حيث يرد النور والهواء النقي . فيه تجدون صورة الشخص الالهي الذي عاش عيشكم وتعب تعبكم ومرّت في نفسه الكريمة الافكار العادلة التي تمر كل يوم في نفوسكم . اجل ايتها المخلوقات البشرية التي تملاء العالم كما تملاء الرمال شواطيء البحار والتي تستغرق الانسانية كلها الا الوفاً منها — لا اصلاح في الارض ولا اصلاح ولا مدنية حقيقية الا بالعود الى مبداء يسوع وهو العناية بك قبل كل شيء . فان فسادك لا يفسدك وحدك فقط بل يفسد الدنيا كلها معك ما فوقك وما تحتك . ولذلك تعود المدنية العصرية الى هذا المبداء شيئاً فشيئاً . فشددي عزمك وقوي نفسك وارفعي راسك فقد جاءت نوبتك . واذا كنت لا تزالين في الشرق ضعيفة مقهورة مكسورة الجناح فالغرب قد مرّ عليه قرن (منذ الثورة الفرنسوية) وهو يرفع رايتك . وهذه الراية ستنال اكليل النصر لا محالة فتشعرين حينئذٍ بانك ان لم تغلبي بعدُ فقد غلب اخوتك . ولكن اذا كان من وظيفة خدمتك اعطاؤك هذا النشاط وهذه القوة لتنهضي وتحفظي حقوقك فمن وظيفتهم ايضاً ان

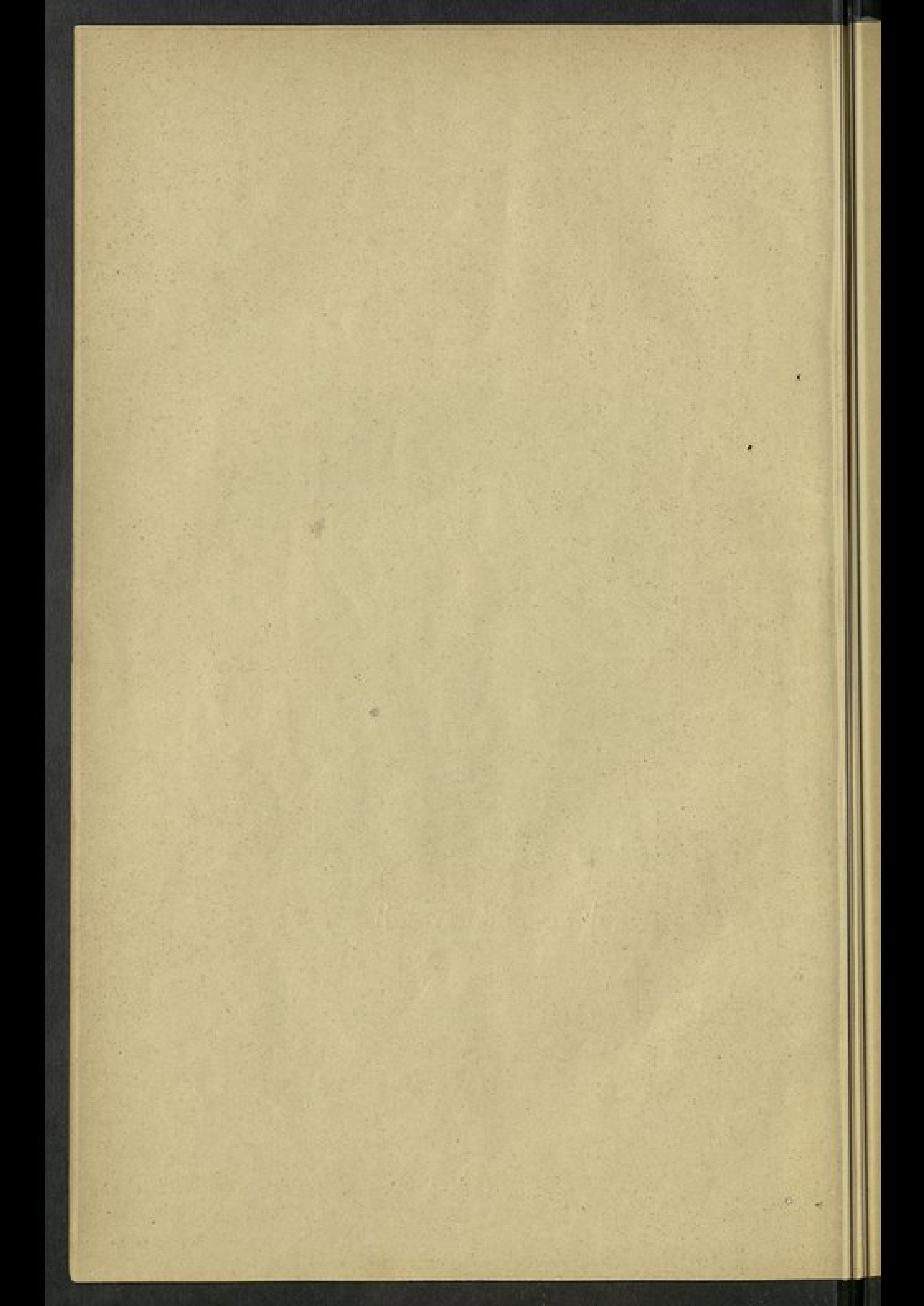
يحذّرونك من العثرات في طريقك . فما لك ولتعاليم الاشتراكيين الماديين ايتها المخلوقات الكريمة فانها مضرة بك وبالهيئة الاجتماعية كلها . فانهم يعلّمونك بغض اهل المال ويغرونك باستحلال اموالهم كما استحلوا تعبك . ويقولون لك ان كل ذهب من ذهبهم مصبوغ بدمك ودموعك وعرقك فمن حقك ان لا تحترمي هذا السلب القانوني . يعلّمونك اذا مررت بقصورهم الشاهقة ومركباتهم الفاخرة ومشيهم في الارض مرحاً كأنّ الدنيا لهم وحدهم ان تبصقي عليها وعلى الهيئة الاجتماعية التي تساعد هذا الفساد والظلم في بعض ابنائها دون بعض وتتركهم يأكلون بعضهم بعضاً كالحيوانات الوحشية . ولكن يا اختي هذه العواطف لا تليق بمثلك وانا احذرك منها لانها اذا كانت من جهة تدعى (عدالة اجتماعية) كما يقولون فهي من جهة اخرى تدعى (حسداً وبغضاً واثرة) . واذا قالوا لك (١) ان هذا البغض والحسد امر ضروري لازم في حالتك الآن لانه (يخلق القوة والنشاط) ويكون جامعة للضعفاء فيما بينهم فانت تعلمين انه يجب محاربة كل جامعة لا تقوم على (العقل والعدل والحق) فضلاً عن ان البغض كريه قبيح دنيء ايا كان سببه . وما هو غرضك من هذا البغض والحسد يا ترى . هل ذلك لرغبتك في ان تكوني مثلهم . ألا فاعلمي انك يمكنك ان تكوني افضل منهم . وليس يلزمك لذلك غير الرجوع الى مبادئ يسوع نفسه . ان هؤلاء الاشخاص الذين يمتصون دماءك ايتها الانسانية ويعيشون من تعبك هم اخوتك وان كانوا على طريقة قايين . وهم يلقون من المتاعب والشقاء والمصائب في هذه الحياة مثل ما تلقين . ولا يغرنك الظاهر فانك في كوخك الحقير الصغير انعم بالاً منهم واحسن حالاً . ذلك لانك فيه لا ترهبين شيئاً لانك لا تخشين ان تخسري شيئاً وهم يرهبون كل شيء . واسمعي ما يقوله برناردين دي سان بيير فيهم (انهم ابتاعوا سعادتهم المزعومة بثمن غالٍ لانهم لا يحصلون الوجاهة في الدولة والمال الا ببذل شيء من الشرف وخسارة الصحة ودوس الضمير واذية بني جنسهم) (٢) فهل هذا مما يستحق الحسد ؟ انهم مساكين مثلك . وكما انك ضعيفة من جهة فهم ضعفاء من جهة اخرى . سلي الخالق الذي يقرأ في قلوبهم فانه يعلم ما لا تعلمينه منهم . واذا شئت برهاناً صغيراً على ضعفهم فدعيهم يتجردون شهراً واحداً من امتيازاتهم ومراكزهم ولينزلوا امثالك الى ساحة العالم التي تتعاركين فيها فترين حينئذٍ انهم في هذا الزحام الجديد في الحياة اقصر من ان

١) كلام مشهور لجان جوريس زعيم الاشتراكيين في فرنسا

٢) بولس وفرجيني

يسيروا خطوة وحدهم · فاشفقي اذاً عليهم وعلى ضعفهم ومتاعبهم بدل ان تحسديهم · و بما ان مبادئ يسوع تعطيك قوة وقدرة على ان تكوني فوقهم فالجاي اليها واتركي الاشتراكيين · اعملي بشريعة المحبة والصفح والحلم واحتقار النجاح المادي متى كان يقتضي دوس الضمير · ضعي الاخلاص والسذاجة ونقاء الباطن والصداقة والحرية والخير والحق والعدل والعقل والقناعة بالقليل والمعيشة الروحية فوق كل شيء مادي في الارض كما كان يضعها يسوع · وحينئذٍ تكون الانسانية التي في باطنك ارقى من الانسانية التي فيهم · وتجدين في هذا العيش الساذج النقي الطبيعي من الراحة الباطنية والسعادة الحقيقية ما لا يجدونه هم في ثروات الدنيا كلها · لان الثروة كالماء المالح كما شرب الانسان منها يزداد عطشاً وتعباً وغلظة · وهذا معنى قولهم (جزاء الخير منه وفيه) · ولا تقولي ان هذه الراحة والسعادة وهمية بل تعزية العاجز وتسلية القاصر فانك بذلك تحكمين بنفسك على نفسك · لان من يقول هذا القول يدل على فساد قلبه وتغير طبيعته لكونه عاجزاً عن ان يفهم تلك الحالة · فان هذه المسألة مسالة شعور وقلب لا مسالة منطق وعقل · ومن فقد هذا الشعور يفقد اللذة الحقيقية والراحة الحقيقية في الارض الى الابد · وحينئذٍ لا دواء له غير رحمة الله به او رجوعه الى مهد امه لتربي نفسه تربية جديدة وتصلح طبيعته · فتمسكي اذاً بهذه القوة القلبية التي كانت ليسوع والتي كان يحتقر بها كل امور المادة ولا يعبأُ الا بامور الفكر والروح · وهذه هي الحقيقة الابدية التي لا تزول معما انقلبت الاجيالُ والاحوال حتى ولو اكتشف البشر في المستقبل طرق توزيع خيرات الارض توزيعاً عادلاً عاماً يبطل به الفساد الذي ينشاه في الطبقات العليا بكثرة الثروة فيها كثرة فوق الحاجة والفساد الذي ينشاه في الطبقات السفلى بقلتها فيها عن الحاجة · وهذا هو السبب في تفضيلنا مبادئه على مبادىء الاشتراكيين ونشر صورتها امامك واهدائها اليك · واذا كنت ترتابين الآن في هذه الحقيقة فمتى حان اجلك بعد عمر طويل ستتحققين وانت على فراش الموت يوم لا ينفع الانسان شيء ان هذا هو الحق بعينه · واذا كنت قد عملت به في حياتك تموتين مستريحة لتذكرك ان حياتك كانت نفعاً للناس اخوانك لا حملاً ثقيلاً عليهم وظلماً لهم وانك تذهبين مبكياً عليك منهم لا مبكياً منك ·







الفيلسوف ارنست رنان

الباب الثاني

الفيلسوف ارنست رنان

ترجمته وآراء مشاهير العصر فيه

ترجمة الفيلسوف رنان

ولد « ارنست رنان » في (تريجيه) من اعمال فرنسا في ٢٧ فبراير من عام ١٨٢٦ · وكان ابوه ربانًا لاحدى السفن التجارية وهو من مقاطعة بريطانيا · واما امه فانها كانت غاسكونية ولذلك كثيرًا ما قال رنان عن نفسه ان هذا المزج بين البريطانية والغاسكونية انشأ فيه من جهة الاوَّل قوَّة التصوُّر والتأمل ومن جهة الثاني قوَّة الصبر على الحياة والارتياح الى المعيشة كيفما كانت

وقد توفي ابو رنان وعمرهُ خمس سنوات فربتهُ امهُ بمساعدة بعض الكهنة وهي تنوي ادخالهُ في سلك الاكليروس · فتلقى رنان دروسهُ الابتدائية في دير اكليريكي في بلده وقد مال في صغره الى الدخول في هذا السلك رغبةً في الانقطاع الى العلم والفضيلة · وبقيَ على هذهِ الرغبة حتى بلغ السنة الخامسة

عشرة من العمر فانتقل الى دير سان نيقولا في شاردونه لاتمام دروسه فتغيرت افكاره هناك لما كان يجده حوله احياناً من قلة الاحترام للمسائل الدينية كما قال المسيو برتلو الذي نعتمد عليه في هذه الفذلكة . ومنذ هذا الحين تزعزع ايمانه . ثم انتقل في سنة ١٨٤٢ الى دير ايسي ليتلقن الفلسفة فطالع هناك مؤلفات الفيلسوفين الالمانيين هجل وهردر فاجهزت هذه المطالعة على ايمانه وصار يرى حياة العالم عبارة عن نموّ باطني للكون كما ان نموّ الشجرة وحياتها انما هو عبارة عن نموّها الباطني . وفي سنة ١٨٤٤ اخذ يدرس اللغات الشرقية فما تعمق فيها حتى صار يعتقد انه لا يمكن ان تكون التوراة كتاباً منزلاً لما رآه فيها من الاغلاط التاريخية . فعدل منذ هذا الحين عن الانخراط في السلك الاكليريكي وقام حينئذٍ في نفسه نزاع شديد بين النذر الذي نذره من الانخراط في هذا السلك و بين ما حسبه حقيقة . وكانت له اخت تدعى هنريت رنان وكانت سامية المدارك قوية العقل وهي اكبر سناً منه باثنتي عشرة سنة فاخذت تخمد ثورة فكر اخيها وتهوّن عليه قطع ما كان بينه و بين رجال الاكليروس من الصلات . وزار رنان في ذات يوم صديقه الفيلسوف جول سيمون وهو لابس اللباس الاكليريكي واطلعه على ما قام في نفسه من ترك الاعتقاد القديم والعدول عن الانخراط في سلك رجال الدين . قال جول سيمون في بعض كتبه . وقد بذلت جهدي في إثناء رنان عن عزمه فكان يجيبني انه لا يستطيع ذلك لان الطائر الذي كان في نفسه قد طار منها . وهكذا نبذ رنان نذره وخلع الثوب الاكليريكي

ولكن رنان لم يخلع الثوب الاكليريكي حتى لبس ثوب الضجر من الحياة واليأس من الوجود لانه لم يكن يجد لها غرضاً . ولا غرابة في ذلك فان الحالة

التي بلغتها نفسه قد البسته هذا الثوب المملوء حسكاً وشوكاً . فمن حسن حظه تعرّف في المدرسة التي كان يدرّس فيها بشاب يدعى برتلو وهو الموسيو برتلو الكيماوي الفرنسوي المشهور الذي جعل منذ عامين عضواً للاكاديمية الفرنسوية وكان من قبل وزيراً للشؤون الخارجية الفرنسوية . فعقد رنان مع هذا الشاب صداقة قوية العرى . وكان برتلو منصرفاً الى العلم الحسي او الوضعي فاثرت معاشرته وافكاره في رنان تأثيراً شديداً فصار رنان يعتقد اعتقاده في نفع هذا العلم ومقدرته على اصلاح الهيئة الاجتماعية وتحسين احوال البشر . فصرف افكاره الى هذا الامر قياماً بهذه الخدمة فكأنّ برتلو بثّ فيه روح دين جديد . ومنذ ذلك الحين اخذ رنان بالاشتغال بالعلم وصار يجد للحياة غرضاً ومقصداً

ففي سنة ١٨٤٨ قدّم لجمعية الفنون كتابه المعنون « تاريخ اللغات السامية » فطارت به شهرة رنان وعدّ مستشرقاً عظيماً . ثم كتب في سنة ١٨٤٩ كتابه « مستقبل العلم » غير ان هذا الكتاب لم ينشر الاّ في سنة » ١٨٩٠ . وكان من اقواله في هذين الكتابين ان العالم ينمو بنفسه من نفسه وهو سائر الى الكمال سيراً تدريجياً . وما هو ذلك الكمال ؟ هو قوّة الفكر والفضيلة وطلب الحقيقة والخير لذاتهما . فعلى العلماء والفلاسفة الذين هم نخبة الانسانية ان يبذلوا قصارى جهدهم في تعليم الحقيقة للناس ورفع باقي الانسانية اليهم فان هذا الامر مطلوب منهم كما هو مطلوب من رجال الدين . ومن يقوم به منهم فان عمله يكون عبارة عن صلاة او افضل منها

وفي سنة ١٨٤٩ عهد الى رنان بمهمة علمية في ايطاليا فسار اليها وشاهد عظائم فنونها الجميلة فتشرّبت نفسه حبّ الجمال . وفي عام ١٨٥٢ نشر كتابه « ابن رشد ومبادئه » وموضوعه اثبات ان الاضطهاد الديني هو الذي اوقف في الاندلس

والعالم الاسلامي مسير التمدُّن ومنع الارتقاء العلمي والفلسفي الذي كان قريب الحدوث فيها . وكان غرضهُ من هذا ان يُظهر للحكومات والسلطات الدينية ما ينشأ عن اضطهاد الدين للعلم ليكون عبرةً لها فلا تضطهد العلم في اوربا فيحلُّ بها ما حلَّ بمن تقدَّموها

واقترن رنان في عام ١٨٥٦ بمدموازل شيفر حفيدة المصوّر آري شيفر فانتبهت فيهِ عواطف الحب وانعكست الى نفسهِ صورة الجمال الانثوي الذي اتخذهُ رفيقًا لهُ فاحياها وملأها تصوُّرات وتأملات عذبة . فصار قلم رنان بعد هذا الزواج كأنهُ قد غُطَّ في كأس عسل . وقد حدث مثل ذلك لجان جاك روسو بل اشدَّ منهُ . فانهُ في بعض ادوار عمرهِ وهو الدور الذي تشتدُّ فيهِ زقزقة الطيور وتلمع جنح الفراش في الحقول ــ اي دور الربيع الانساني ــ صار يحسُّ بنار في داخله و برق في عينيهِ وجريان في قلمه فاذا كتب خطَّ سحرًا وابرز تبرًا . وقد كتب في تلك المدة القريبة كتابه « هيلويز الجديدة » وكله رسائل حبية فلسفية فكان ابلغ كتبه . و بعد ذلك خمدت تلك الثورة وانطفأت تلك النار فذهبت بذهابها تلك البلاغة التي كانت تُصعد عنها

اما رنان فلم تخمد ناره قبل ابرازه الكتاب الذي طيَّر صيتهُ في جميع اقطار الارض وجعلهُ اوسع علماء عصره شهرةً

وهذا الكتاب هو « تاريخ اصل الديانة المسيحية . وهو خمسة اقسام (١) تاريخ حياة المسيح (٢) تاريخ اعمال الرسل (٣) تاريخ حياة القديس بولس (٤) المسيح الدجال (٥) مرقص اوريليوس . وكل واحد من هذه الاقسام كتاب ضخم . وامامنا الآن القسم الاول منهُ وهو تاريخ حياة المسيح وعدد صفحاته ٥٤٩ صفحة كبيرة ماعدا مقدماته الطويلة

ولا ريب في ان هذا القسم اهمّ اقسام الكتاب كله · وقد كتبه رنان في سياحة لهُ في فلسطين وسوريا ولبنان بين سنة ١٨٦٠ و ١٨٦١ وكان مرسلاً اليها للتنقيب عن آثار الفينيقيين ولهُ فيها كتاب عنوانهُ سياحة في فينيقيه · وبعد عودته من فينيقية جُعل استاذاً للغات العبرانية والكلدانية والسريانية في مدرسة كوليج دي فرانس · غير انه بينما كان يلقي فيها اول دروسه لقب السيد المسيح في كلامه عنه « بالانسان الذي لا مثيل له » فقامت في الجلسة قيامة انصار الاكليروس وخصومهم بعض معهُ وبعض عليهِ فقرّرت الحكومة الامبراطورية الغاء هذا الدرس فترك رنان تلك المدرسة · وقد تلا هذا الحادث ظهور كتاب تاريخ المسيح في عالم الادب (سنة ١٨٦٢) فانفجرت على موءلفه ينابيع حارةٌ وينابيع باردة

اما الينابيع الحارة فانها انفجرت من نفوس جميع رجال الدين ولا سيما المتطرفين منهم وجميع الذين يقلدون بهم او يعيشون من ورائهم · فسلقه هذا الحزب بالسنة حداد وانهالوا عليه في الجرائد والمجلات بالشتم والسب وحرموه من الكنيسة ولعنوا كل من يقرأ كتبه · وقد اتهمه بعضهم بانه ما كتب ذلك الكتاب الا في مقابلة مليوني فرنك قبضها من بيت روتشيلد الاسرائيلي · ولكن اصدقاء رنان الذين يعرفون حبه المجرد للتقرير ما يحسبه حقيقة ينفون عنه هذه التهمة السوداء · وسنشير في ما يلي الى الردود التي كان رنان يردّ بها على الطاعنين عليه

واما الينابيع الباردة فانها انفجرت من نفوس الاسرائيليين في جميع اقطار الارض لان ذلك الكتاب يعزو تمدن العالم اليهم ويقول بخروج المسيحية منهم وان كان يُثبت ان آدابها العليا لم تشتق من آدابهم

ثم حدثت الحرب بين فرنسا والمانيا في سنة ١٨٧٠ فكان رنان من كارهيها وقد كتب يومئذٍ في « مجلة العالمين » الفرنسوية مقالة شبّه فيها فرنسا والمانيا باختين

في المدنية وقال ان من الجناية على التمدن ان نتحاربا . وبعد ما شاهده رنان في هذه الحرب من آثار الهمجية البشرية في ساحة القتال ومن تمرد رجال «الكومون» في باريز وافضاءهذا التمرد الى حرب اهلية بين الفرنسويين جرت فيها الدماء انهارًا تزعزعت ثقته بسير العالم الى محجة الكمال وكره الديموقراطيــة وشؤونها لانها ادَّت بوطنها الى ذلك الوبال . وصار يرى من الواجب على كل امة ان يكون فيها نخبة من رجال الفضل والعقل لادارة شؤونها بقسط واعتدال فلا يكون للفساد والرشوة من سبيل الى نفوسهم . واخذ يتساءل كثيرًا هل ان العقل والعدل يسودان في هذه الارض في مستقبل الزمان ؟ ام يتوصل العلم فقط الى حالة يصبح فيها سواد الناس عاجزين عن الاضرار بكبارهم لما يضعه لهم هؤلاء الكبار من الشكيمة بواسطة معارفهم العلمية . وقد نشر رنان كتابًا في هذا الموضوع عنوانه «مباحثات فلسفية»

وبعد ذلك قامت الجمهورية الثالثة بعد حرب السبعين واعادته الى كرسي التعليم في كوليج دي فرانس وجعلته مديرًا لهذه المدرسة . وفي سنة ١٨٧٩ عين عضوًا للاكاذيمية الفرنسوية . فعاد رنان ورضي عن الديموقراطية بعض الرضى . وفي سنة ١٨٩٢ اتم نشر كتابه « تاريخ شعب اسرائيل » وهو خمسة اجزاء وصل بها تاريخ المسيح بتاريخ نشأة بني اسرائيل فكان هذان الكتابان تاريخًا شاملاً لحوادث الاسرائيلية من اولها الى ما بعد انتشار الديانة المسيحية

وقد عمَّر رنان نحو سبعين عامًا . وكان في آخر ايامه رزينًا هادئًا مع شيء من التهكم وعدم المبالاة باراء الناس . وبقي على هذا الهدوء والرزانة مع ما انتابه من المرض والالم في آخر حياته . وقد قال وهو على فراش الموت «انني اموت سعيدًا لانني اتممت عملي . وما الموت الاَّ ناموس طبيعي . فلنخضع لناموس الطبيعة»

الاولى الاختراع والاكتشاف وهي في هذا الامر شريكة المعمل الكيماوي ورفيقته . والثانية نقل المعلومات الصناعية للصناع والزراع والتجار لترقية صنائعهم بها . والثالثة بث روح النشاط والقوة والتعزية ومكارم الاخلاق في نفوس الامم خصوصاً الضعفاء منها لينهضوا فلا يدوسهم الاقوياء . وهذا الامر عندنا اهمّ من الامرين السابقين لانه مُصلح اخلاق البشر ومعطر ريح الارض ومسلي الانسانية ومعزيها . وليس يساوي منفعته عندنا شيء غير بث روح العدل والشهامة في نفوس الاقوياء ليعرفوا ما يجب عليهم لباقي الناس وللامة التي تتركهم يجمعون قوتهم منها . فكمال العمل الاجتماعي اذاً اغاهو في تقوية نفوس الضعفاء واضعاف نفوس الاقوياء ليلتقي الفريقان ويتساويا امام الله والناس . وهذه نفس الروح التي بثها يسوع في حياته الجليلة .

ولقد قام بعد يسوع في العصر الاخير قوم متحمسون لمبادئهم اشد تحمس ومقتنعون بصحتها اشد اقتناع ووقفوا قواهم وحياتهم لمحاربة الفساد الذي حارب به يسوع بحماسة كحماسته . ولقد اصبح لهم في اوروبا من الدولة والسلطان ما ارجفوا به العروش والقصور وصرفوا الى الشعب وضعفاء الامم قسماً عظيماً من القوات والخيرات والسلطات التي كانت في ايدي الطبقات القوية . وهذه السنوات الاخيرة تسجل لهم في كل يوم فتحاً جديداً وتقدماً عظيماً . ولا ريب ان القارئ قد علم اننا نعني بهؤلاء القوم جماعة الاشتراكيين . الا ان هؤلاء القوم قد اخطأوا خطأ عظيماً مسوقين اليه بمبادئ الغلاة منهم . ونريد بهذا الخطاء «تركهم الفكرة الدينية» قال رنان الذي كان في حياته من خصومهم في كتابه هذا ما نصه) وسيبقى «مبدأ ملكوت الله» اعظم المبادئ المحركة الى طلب الاصلاح في كل مكان الى ما شاء الله . اما الاشتراكيون الذين يطلبون اصلاح الارض اليوم فانهم يبقون عاجزين عن انفاذ اصلاحهم ما لم يلجأوا الى افكار يسوع نفسها ويعملوا بها . فانهم يطلبون بناء على مبدإ مادي غليظ امراً مستحيلاً وهو جعل جميع الناس سعداء ولذلك لا ينجحون وانما ينجحون متى عملوا بقواعد المسيح وهي ابتغاء اعلى صورة للكمال في الارض لا لخيرات الارض . وهذا المبدأ يوجب على طالبي اصلاح الارض التنازل عنها وعن خيراتها» «الباب الرابع الصفحة ٣٢» وقال في كتابه اعمال الرسل في اثناء كلامه على معيشة الرسل والمسيحيين الاولين» وهنا شبه عظيم بين هذه الحالة وحالة بعض المبادئ الاشتراكية التي قامت في هذا العصر . ولكن الاشتراكية المسيحية كانت مؤسسة على عاطفة دينية واما الاشتراكية العصرية فهي منفصلة عن هذه العاطفة . وظاهرٌ كالشمس للعيان ان الهيئة التي يقدّم لها افرادها رأس مال ولا ينتظرون منها ربحاً على نسبة هذا المال الذي وضعوه

اقامة تمثال لرنان
في العام الماضي

ومنذ سنتين ألَّف في فرنسا اصدقاء رنان ومريدوه لجنة لاقامة تمثال له في (تريجيه) مسقط راسه · فنشرت اللجنة اعلاناً بغرضها بين جميع مشاهير الارض فوردتها الاموال ورسائل الاشتراك من كل الجهات · وقد كان المشتركون معها من كل الاحزاب العاقلة المتساهلة كاثوليك وانجيليين واسرائيليين وفلاسفة · وفي جملتهم المؤرخ ممسن اعظم علماء الالمان والعالم جبرائيل مونود اعظم علماء البروتستانت في فرنسا والمسيو ريبو الكاثوليكي الذي امتاز في فرنسا بالعامين الاخيرين بالانتصار للحزب الاكليريكي صوناً لمبداء الحرية والجمهورية وهو من رؤساء الوزارات السابقين · والمسيو والدك روسو المشهور · وكثيرون من علماء الارض من كل البلاد · وكلهم كتبوا الى اللجنة كتباً خلاصتها ان الانسانية وفرنسا يحق لهما ان تفتخرا بظهور رجل فيهما نزيه الاخلاق واسع العلم مترفع عن دنايا الارض مثل ارنست رنان · وقد جمعت اللجنة هذه الرسائل كلها في كتاب ضخم دعته « كتاب رنان الذهبي » لانه عبارة عن شهادة له من مئات من اكابر علماء الارض وعقلائهم بصفات علمية وفلسفية ولدوية لم تنسب لغيره من عهد افلاطون · ولذلك دعوه « افلاطون المتأخرين »

ولما قامت هذه الجلبة في فرنسا في العام الماضي نهض الحزب الاكليريكي لمقاومة الشارعين في اقامة التمثال فتصدى له الحزب الجمهوري · واصبح اسم رنان عبارة عن راية يتحارب الحزبان حولها · اما اهل الاعتدال فكانوا بين الحزبين يخففون من حدتها · ومنهم جريدة الطان والديبا · فان جريدة الطان كانت تقول لها ان رنان الذي كان في حياته (رسول التساهل والسلام) لو حضر معاركتها حول اسمه لابعدها كليهما عنه بنزق · ومن رأيها انه ما من احد ساعد على انتشار الروح الديني في العصر الجديد مثل رنان · واما جريدة الديبا الكاثوليكية التي قصر رنان قلمه على الكتابة فيها في حياته ولم يكن يكتب في غيرها فقد رأت رأياً جميلاً · قالت : ان رنان خدم الروح الديني في العالم خدمة ما بعدها خدمة · فانه هدم « روح فولتير » هدماً · تعني روح التهكم على الاديان والمذاهب واعتبارها اساطير قديمة · وانما هدم رنان تلك الروح بشيئين : الاول اعتماده في

كتابة تاريخ الديانة المسيحية على الكتب المسيحية نفسها . والثاني تعليمه الناس احترام الامور الدينية واظهاره جمال العواطف الصادرة عنها . فان كل قارئ لا يتمالك ان يطير طرباً كلما قرأ ذلك الكلام اللين الحلو الممتلئ روحاً دينياً وتتشبع نفسه منه . وهكذا نشأ متأدبو العصر على احترام العواطف الدينية ووضعها في اسمى منزلة في نفوسهم بعد ان كان لا همّ لهم الا التهكم عليها واحتقارها . وبذلك حلت « الروح الرنانية » محل « الروح الفولتيرية » واليك بعض الامثلة لذلك

قال رنان في خاتمة كتابه « اعمال الرسل » ان الانسان حيوان ديّن اي مفطور على الدين . وكلما ارتقت الانسانية ازداد شعوره الديني . وقد شرح ذلك هناك شرحاً وافياً . وهذا الرأي مخالف رأي الماديين والوضعيين على خط مستقيم

وقال في منتخباته ما ملخصه « انه لما كان في غزير (لبنان) نزل ضيفاً على احدى الاسر الكبيرة هناك . فلما قامت الضوضاء في فرنسا بسببه دعا كبير تلك الاسرة نجلاً له وسأله قائلاً يا بني ما بالهم ينسبون الى المسيو رنان ما ينسبون . اخبرني عن اعتقاده . ولنبدأ اولاً بالآب . هل يعتقد بالله . فاجاب الفتى : انه في هذا وطيد الايمان . فاجاب ذلك الشيخ الكريم . هذا شيء كثير هذا شيء كثير » وقد اورد رنان هذه القصة لاثبات ايمانه

وحدّث في الشهر الماضي احد كتّاب الدنيا فقال . بعد دفن اخت رنان في جبيل (لبنان) كان رنان يستدعي الكهنة لاقامة القداسات عن نفسها . ولما قيل له في ذلك اجاب انني استنزل عليها بركة شيوخ صالحين كهؤلاء الشيوخ واحول بذلك دون اهانة قبرها بعد سفري اذا سمع هنا عني شيء يكرهونه

وقال في مقدمة كتابه « اوراق منثورة » « هل الحاجة الابدية التي في ضمائرنا الى ما وراء الطبيعة هي وهم وخيال ؟ كلا ثم كلا . فان من ينفي ذلك نفياً قطعياً مثله مثل من يثبت ذلك اثباتاً قطعياً . لانه اذا كان لم يثبت عقلياً ان للكون نفساً فائضاً لم يثبت انه ليس هنالك نفس له . فكل ما نعلمه اننا لا نعلم شيئاً . هذا كل ما نقدر ان نقوله عما وراء الطبيعة . فلا ننكرنّ شيئاً . بل فلنتمسك بالامل »

وقال في موضع آخر « ان نفسي ستسكن بعد وفاتي في خرائب كنيسة القديس مخائيل بشكل طائر البحر الابيض ويبقى هذا الطائر حائماً في الليل حول ابواب الكنيسة ونوافذها تائهاً عن المدخل شاكياً متألماً . وهكذا تبقى نفسي المسكينة حائمة متألمة حول هذه الاكمة الى الابد . فيقول عنها الفلاح حين مروره بها انها نفس كاهن يطلب الدخول الى الكنيسة

لتلاوة قداسه » قال محرر الديبا بعد ايراده هذه الشذرة « ولكن يا للاسف انه لا يجد ابداً اولاداً يخدمون هذا القداس »

وقال رنان في آخر حياته في احدى خطبه وهو من اشهر اقواله · « وددت لو يكون قبري في وسط دير · ولكن الدير فرع عن الكنيسة والكنيسة لا تريدني وان كانت مخطئة في ذلك. واودّ ان يحفروا على قبري هذه العبارة « لقد احبَّ الحقيقة » اجل انني احببت الحقيقة وطلبتها وسعيت وراءها الى حيث كانت تدعوني دون ان التفت الى ما اعانيه في سبيلها · ومما لا يحتاج الى بيان ان سرّ الكون لم ينجلِ لاحد بعد · وليس هنالك احد على ثقة من انه وجده · فان اللانهاية التي تحيط بنا وتضغط علينا لا يحيط بها علم وهي تملص من كل حدّ وقيد · ولكن هنالك شيء واحد يستطيع الانسان تأكيده ويكون على ثقة منه وهو سلامة النية · ولقد عملت ما عملت بسلامة نية · وانا اقسم على صدق هذا القول بالموقف الاخير في يوم الدينونة »

والآن اليك ما قاله في معلميه واساتذته وكلهم من رجال الاكليروس لانه كان راهباً في شبابه « كان اساتذتي يعلمونني ما هو افضل من الانتقاد والاستنباط الفلسفي · ذلك انهم كانوا يعلمونني حب الحقيقة واحترام العقل والمعيشة الجدية · وهذا هو الشيء الوحيد الذي لم يتغير فيَّ · ولقد صرت بتربيتهم لا اقدر على شيء من الحياة الزمنية فانصرفت الى الحياة الروحية · وصرت ارى كل عمل مأجور عملاً دنيئاً · فيا اساتذتي الاعزاء الذين مات اكثرهم الآن · اني اراكم احياناً في احلامي ولكنني اراكم كتذكار حلو عندي لا كتبكيت وتوبيخ · فانني لم اخنكم بقدر ما تظنون · نعم قلت ان تاريخكم غير كاف وفلسفتكم اضعف من الفلسفة التي تعلمنا ان لا نقبل « شيئاً خاصاً وراء الطبيعة » ومع ذلك فانني لا ازال تلميذاً لكم · فانني مثلكم اعتقد ان الحياة لا قدر لها ولا قيمة الا بصرفها في الاخلاص والحقيقة والخير · الا انكم تفسرون هذا الخير تفسيراً ضيقاً وتجعلون هذه الحقيقة مادّية مجسمة وان كنتم مصيبين من حيث اساس الموضوع · فانا اشكركم لانكم طبعتم فيَّ كطبيعة ثانية ذلك المبدأ الذي قد يمنع نجاح الانسان الدنيوي الا انه يبلغه السعادة والراحة في هذه الحياة وهو ان الانسان عليه ان ينصب امامه غرضاً شريفاً يسعى اليه في الدنيا سعياً مجرداً عن المصلحة الخصوصية »

ولما دخل ١٤ سبتمبر كان تمثال رنان منصوباً في ساحة تريجيه تحف الوزراء والعلماء والكبراء في فرنسا للاحتفال برفع الستار عنه · وهذا التمثال يمثل رنان جالساً على مقعد في تريجيه كما كان يجلس عادةً وهو في سن الستين وفوقه « بالاس آثينا » الاهة

الحكمة عند اليونان تحمل اكليلاً تضعه على رأسه وقبعته الى جانبه وعصاه في يده وهو غائص في بحر التفكر والتأمل في الحياة والكون والانسان حسب عادته . وهذا التمثال من صنع النقاش جان بوشه . وقد قامت تريجيه وقعدت في ذلك اليوم لكثرة المتوافدين عليها . وحدث بين حزب رنان والحكومة وبين الحزب الاكليريكي الملكي شيء من الاضطراب ولكن من حسن الحظ غلب الفريقان العقل على الجنون فانتهى الامر على احسن حال . وكانت الحفلة تحت رئاسة المسيو كومب رئيس الوزارة والمسيو شوميه وزير المعارف العمومية . ولما رفع الستار عن التمثال صفق الحاضرون وهتفوا فتلت حينئذ المدموازل ماريتو « صلاة رنان على الاكروبول » وهي ابلغ ما كتبه الفيلسوف . ثم شرعوا في الخطب . وهي ست (الاولى) للمسيو كيس رئيس جمعية « البرطانيين الزرق » صاحبة التمثال . (والثانية) للمسيو كيلم شيخ تريجية (والثالثة) للمسيو شوميه وزير المعارف بالنيابة عن الحكومة الجمهورية (والرابعة) للمسيو برتلو الكيماوي المشهور صديق رنان الحميم بالنيابة عن جمعية العلوم (والخامسة) للمسيو اناتول فرانس الذي خلف رنان في فرنسا برقة العبارة والجرأة (والسادسة) خطبة شكر تلاها المسيو بسيشاري صهر رنان . وكانت قرينته مدام بسيشاري ابنة رنان حاضرة الى جانبه

ولقد نشرنا في الجزء الثامن من (الجامعة) للسنة الرابعة تفاصيل هذا الاحتفال وترجمة بعض الخطب التي القيت فيه خصوصاً خطبة المسيو اناتول فرانس احد رجال الاكاذميه الذي قال في ختامها مخاطباً تمثال رنان عن لسان (آثينا) الاهة الحكمة التي نصب تمثالها وراء تمثال رنان بكلله ما تعريبه « فكن مطمئناً واقبل الان من يدي غصن الذهب الذي استحقه جدك وكدك . عش مجداً معظماً في انقى القلوب واقوى النفوس . احي فيَّ لاحيى فيك يا اعظم اصدقائي . فلقد نلت الخلود الذي كنت تصبو اليه . وكل ما ابرزته نفسك من الجمال والخير لا يذهب شيء منه سدى بل يبقى الى الابد . فان الانسانية لا بد ان تحقق احلام الحكماء شيئاً فشيئاً وان كان سيرها بطيئاً »

الباب الثالث

المقدمات

وفيها هديته الى اخته · وتاريخ كتابه كتابه · والمصادر التي استند اليها · ولمحة من تاريخ الحركة الدينية في العالم

مقدمات تاريخ المسيح

ان النسخة التي نلخص منها هنا تاريخ المسيح هي من الطبعة الخامسة والعشرين · اي انه اعيد طبعها ٢٥ مرة · وقد صدَّرها المؤلف بهدية الكتاب وهي الى اخته المدموازل هنريت رنان التي رافقته في سوريا وفلسطين وتوفيت بالحمى في جبيل (لبنان) ثم يلي ذلك ثلاث مقدمات · ونحن نلخصها هنا كلها قبل الوصول الى موضوع الكتاب · قال المؤلف في صحيفة الهدية

الهدية الى اخته

« الى روح اختي هنريت الطاهرة
« التي توفيت في جبيل في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٦١
« اتذكرين وانتِ الآن مستريحة في احضان الله تلك الايام الطويلة ايامنا (في غزير) التي كنتُ فيها واياكِ منفردين نكتب صفحات هذا الكتاب الذي كانت توحيه الينا الاماكن التي زرناها معاً · لقد كنتِ يومئذٍ جالسةً بجانبي ساكتةً تنظرين الصفحات التي

كنت اكتبها وكلما اتممت صفحة تناولتها وقرأتها ثم نسختها بعد قراءتها . هكذا كنا نقضي النهار وتحت اقدامنا البحر والقرى والجبال المجاورة . اما في الليل فانك كنت تلقين عليّ سؤالات دقيقة لطيفة كان يظهر فيها شيء من ارتيابك فكانت هذه الاسئلة تعيدنا الى الموضوع السامي الذي كان شغلنا الشاغل . وقد قلت لي يوماً انك تحبين هذا الكتاب لامرين الاول لانه كتب في صحبتك والثاني لانه كتب على ذوقك . **وكنت معتقدة بانه اذا خيف عليه من حكم الرجل الطائش السريع الحكم الضيق القلب فان كل رجل ذي نفس متمسكة بالدين تمسكاً حقيقياً لا بد ان تقضي به قراءته الى الرضى عنه والسرور به** . وبينما كنا منصرفين الى هذه التأملات الحلوة جاء الموت ولمسنا كلينا بجنحه . فرقدنا رقاد الحمى في وقت واحد . ثم انتبهت فوجدت نفسي وحدي . فانت الآن ترقدين بسلام في ارض ادونيس قرب بيبلوس المقدسة (جبيل) في جوار المياه المباركة التي كانت تفد اليها نساء الاديان السرية الماضية ليمزجن دموعهن بمائها . فيا ايتها الروح الصالحة . اوحي اليّ انا الذي كنت حبيباً اليك في حياتك تلك الحقائق التي هي اقوى من الموت والتي تعلم الانسان ان لا يخشاه بل ان يتمناه »

المقدمة الاولى

وتلي هذه الهدية المقدمة الاولى للكتاب وقد وضعها المؤلف للطبعة الثالثة عشرة من كتابه . وقد ردّ رنان في هذه المقدمة ردّاً مختصراً على معارضيه . وهم فئتان . الفئة الاولى منكرو الوحي الذين انكروا عليه الاعتماد على الكتب المقدسة في كتابة تاريخ المسيح لانهم لا يعتقدون صحتها . والفئة الثانية المعتقدون بهذه الكتب بلا بحث ولا جدال وهم رجال الدين ورعيتهم من المؤمنين . وقد قال في ختام هذه المقدمة ما ملخصه

« اني مسيحي ولكنني لست كباقي المسيحيين . فانني اعترف بوجوب ان لا اتكلم عن كنيستي الا برفق ولكن هل ذلك يقضي عليّ بان اغمض عيني عن الحقيقة . وهل اهين حكومة من الحكومات اذا قلت انها لم تحسن تدبير الاميال المختلفة التي في نفوس الناس او اهين ديناً من الاديان اذا قلت انه لم يسلم من الاعتراضات الهائلة التي يقيمها العلم في كل يوم في وجه التعاليم التي من فوق الطبيعة . ان الديانات تسقط الواحدة بعد الاخرى لانها تخضع للقلب لا للعقل ولانه ليس في العالم قوة قادرة على خنق ذلك العقل

« ومع ذلك فاذا تمكن العقل من خنق الديانة فالويل له في ذلك اليوم . **صدقوني ان كرتنا الارضية تعمل في عمل عظيم سيؤدي الى نتيجة عظمى . فلا تقولوا ان هذا نافع**

وهذا غير نافع بل دعوها تعمل فان الطبيعة التي خصت الحيوان بغريزة لاتخطئ لم تضع في الانسان شيئاً يخدع. ولا تقولوا ان الاديان تخطئ كما ارادت اقامة البرهان على وجود «اللانهاية» وتحديدها والزعم بانها تمثلها فانها اذا كانت تخطئ في ذلك فانها تصيب جداً كلما اكدت وجودها . واذا مزجت بذلك كثيراً من الاغلاط فليس ذلك بالشيء المذكور بازاء الحقائق التي تنادي بها . **وان ابسط الناس المؤمنين في قلوبهم اكثر معرفة بحقيقة الاشياء من ذلك المادي الذي يفسر كل شيء في الحياة بالصدفة وفناء المادة»**

وغني عن البيان ان المؤلف لم يوجه القول الاخير الا الى الماديين الذين ينكرون الاديان

المقدمة الثانية

اما المقدمة الثانية فقد تكلم فيها عن المصادر التي استق منها تاريخ المسيح . وهي خمسة (١) الاناجيل الاربعة واعمال الرسل والرسائل (٢) الكتب المسماة «ابو كريف» من العهد القديم وهي الكتب التي لا تعتقد الكنيسة صحتها (٣) مؤلفات فيلون الفيلسوف الاسكندري الذي عاصر المسيح (٤) مؤلفات المؤرخ يوسيفوس المشهور الذي عاصر المسيح ايضاً (٥) التلمود وهو كتاب اليهود

قال المؤلف : اما مؤلفات الفيلسوف فيلون فانها خير مرشد الى الافكار الدينية التي كانت تختلج في نفس الامة اليهودية في ذلك الزمان . ولكن من سوء الحظ ان فيلون كان يعيش في اقليم غير الاقليم الذي ظهر فيه المسيح (اي مصر) وكان عمر فيلون اثنتين وستين سنة لما بلغ يسوع اشده واظهر روحه . وكان فيلون شديد الكراهة ايضاً لتعاليم الكتبة والفريسيين وقد عاش بعد يسوع عشر سنوات على الاقل . فيا لها من خسارة ان لا يكون قد ذهب الى الجليل وشاهد المسيح فانه لو فعل ذلك لكتب عنه ما يكفي ويشفي

واما المؤرخ يوسيفوس فانه كان يكتب لليونانيين والرومانيين الذين كانوا اصحاب السلطة على فلسطين ولذلك لم يكتب باخلاص كما كان يكتب فيلون لئلا يلقي التهمة على اليهود ابناء وطنه . وقد كتب ما كتبه عن المسيح ويوحنا المعمدان ويهوذا الغولونيتي باختصار وغموض فلم يفهم اليونانيون والرومانيون حقيقة الحوادث التي كان يشير اليها .

قال المؤلف . اما الفقرة التي جاءت في كتابه عن المسيح فانها حقيقية واذا كان يوسيفوس قد كتب عن المسيح فانه لا يكتب الا ما كتب لان ذلك الاسلوب اسلوبه . ولكن القارئ يشتم ان يداً مسيحية قد اصلحت تلك الفقرة وحذفت منها وزادت عليها شيئاً

ولا سيما هذه الكلمة التي جاءت فيها وهي « اذا كان يجوز ان يُسمى انساناً » والتي لولاها لكان كلام يوسيفوس شهادة على رجال الدين لا لهم · ومما يرجح هذا الظن ان المسيحيين في القرون الاولى اتخذوا كتب يوسيفوس تاريخاً رسمياً لحوادث بلادهم فغير غريب ان يكونوا قد نشروا في القرن الثاني للميلاد طبعة منقحة من جميع كتبه · ومهما يكن من هذا الامر فان اهمية هذه الكتب في كتابة هذا التاريخ لا تخفى على احد لان هذا المؤرخ اليهودي يرينا فيها بكثرة تفاصيله هيرودس وهيروديا وانتيباس وفيلبوس وحنانيا وقيافا وبيلاطس كأنهم اشخاص احياء بيننا

ثم تكلم المؤلف عن اسفار الابوكريف وعن الاناجيل والتلمود كما تكلم عن المؤرخين اليهوديين · فقال ان بابياس لم يسمع بوجود انجيل يوحنا ولكنه يقول ان الرسول بطرس كتب انجيلاً فلعله هو · اما متى فلا يجاريه احد في نقل خطب السيد ودقة حفظها كما ان مرقص لا يجاريه احد في دقة نقل الحوادث وتفصيلها بتأكيد واثبات · ثم ردّ المؤلف على الذين لا يعتمدون على الكتب المقدسة فقال ان المسيو سبرنجر كتب تاريخ حياة صاحب الشريعة الاسلامية واعتمد فيها على الحديث النبوي فلماذا لم يعارضه المعارضون فان هذا كذاك · واذا قام غداً رجل لكتابة تاريخ الفلسفة اليهودية في القرون التي تقدمت ظهور السيد وتلته ببضعة قرون فهل يعترضون على هذا الكاتب اذا نسب الى الفلاسفة اليهود هلل وشاماي وغامالائيل الاقوال التي ينسبها اليهم كتاب المشنا والجمارة مع ان هذين الكتابين لم يُكتبا الاَّ بعد موت اولئك الفلاسفة ببضعة قرون

ثم ردّ على الذين يقولون بالعجائب فانكرها وقال ان الذي يعتقد بها ويروم جعل هذا الاعتقاد قاعدةً لمباحثي ومناظرتي فلا يباحثني ولا يقرأ كتبي لاننا لا نتفق ابداً · ثم وصل الى المصدر السادس الذي اعتمد عليه في كتابة كتابهِ فقال هذا القول الذي يُعدّ تاريخاً لذلك الكتاب

« تلك هي القواعد التي بنيتُ عليها كتابي · ولكنني اضفتُ الى المصادر التي تقدَّم ذكرها مصدراً جديداً وهو زيارة الاماكن التي حدثت تلك الحوادث فيها فكانت لي نوراً مرشداً · فان البعثة العلمية التي عُهدت اليَّ ادارتها بين عام ١٨٦٠ و١٨٦١ للتفتيش عن آثار فينيقيه وارتياد بلادها اقتضت اقامتي مدة على حدود بلاد الجليل والسياحة فيها مراراً · فطفت في هذا الاقليم الانجيلي من كل الجهات وزرت اورشليم وحبرون والسامرة وكل مكان له علاقة بتاريخ المسيح · وقد يخيل للبعيد عن تلك الاماكن ان الحوادث

المسيحية الاولى حدثت في فضاء خيالي لا حقيقة له ولكن لما زرت تلك الاماكن تجسمت فيها تلك الحوادث امامي تجسماً ادهشني . فقد كان الائتلاف تاماً بين النصوص الانجيلية والاماكن المذكورة . واذ نظرت تلك الاماكن الطبيعية الجميلة وقابلت بينها وبين روح الكمال الموصوفة في الانجيل شعرت بانطباق هذه على تلك وحينئذٍ احسست كأن وحياً اوحي اليَّ . فتأملت فوجدت امامي انجيلاً خامساً ممزقاً وهو انجيل الطبيعة . فصرت اقرأ فيه . ولما كنت انتقل منه الى انجيلي متى ومرقص كنت ارى بين السطور صورة شخص عظيم حي . فلما جاء الصيف صعدت الى غزير في لبنان لاستريح قليلاً وهناك كتبت بسرعة وصف تلك الصورة العظيمة التي ظهرت لي فكان منها هذا التاريخ . ثم نزلت بي مصيبة اليمة اضطرتني الى تعجيل سفري (وفاة اخته) فسافرت ولم يكن باقياً عليَّ من هذا الكتاب غير بضع صفحات . فانا اذاً قد كتبت هذا التاريخ في مكان قريب من الامكنة التي عاش يسوع فيها في كوخ ماروني دون ان يكون حولي سوى خمسة من الكتب او ستة . ولما عدت الى بلادي اخذت اصلح واكمل تلك الصفحات التي سطرتها بسرعة

وفي ختام هذه المقدَّمة يقول ما خلاصته « واذا كان يجب على الكاتب ان يكون ميالاً للموضوع الذي يكتب فيه ليجيد فيه ويحسن في شرحه فان ذلك لا يقتضي . ولا اجهل انه يجب على الذي يتصدى لتاريخ دين من الاديان امران . الاوَّل ان يكون قد آمن به اولاً والاَّ فانه لا يفهم شيئاً من محاسنه ولا يدرك ما فيه من مطمئنات النفوس ومرضيات الضمير البشري . وثانياً ان يكون قد صار ممن لا يؤمنون به ايماناً مطلقاً من غير شرط ولا قيد لان الايمان المطلق لا ينطبق على العلم والتاريخ لكونه يوجب التسليم والعلم والتاريخ لا يعرفان تسليماً . ولكن الحب قد ينشأ في القلب من غير ايمان . واذا كان الانسان لا يعتقد بصور الامور التي تستوجب عند الناس العبادة والايمان فان ذلك لا يمنعه من الاعجاب بما في تلك الامور من الجمال . اما الالوهية فانها لا تنفد مهما تكرَّر ظهورها لان الله قد ظهر قبل يسوع المسيح وسيظهره بعده . وظهوره سواءٌ كان كبيراً او صغيراً فانه من طريق واحد وهو ارادته المودعة في الضمير البشري . فليس يسوع اذاً خاصاً بالذين يسمون انفسهم تلامذته ولكنه شرف عام للجميع اي لكل من له قلب انسان . وما عظمته ومجده ان يوضع خارج دائرة التاريخ ولكن ان يوضع في داخلها . وان اصح عبادة تقدم له هي اظهار ان التاريخ البشري غير مفهوم بدونه »

المقدمة الثالثة

لمحة من تاريخ الحركة الدينية في العالم

وقد جعل المؤلف هذه المقدمة الثالثة تمهيداً لموضوع الكتاب فبحث فيها عن الحركة الدينية في العالم منذ انشائه فقال ان التمدن القديم الذي نشأ في الصين وبابل ومصر قد رقى الاديان بعض الشيء لان الاديان في مصر وسوريا واشور والصين كانت تحتوي كثيراً من المبادىء الادبية ولكن الاوهام والخرافات كانت كثيرة فيها ولذلك لم يكن ممكناً ان يصدر عنها فكر عظيم . وكيف تصدر الآداب والحرية عن نسل ما فتئ ذليلاً مستعبداً منذ وجوده

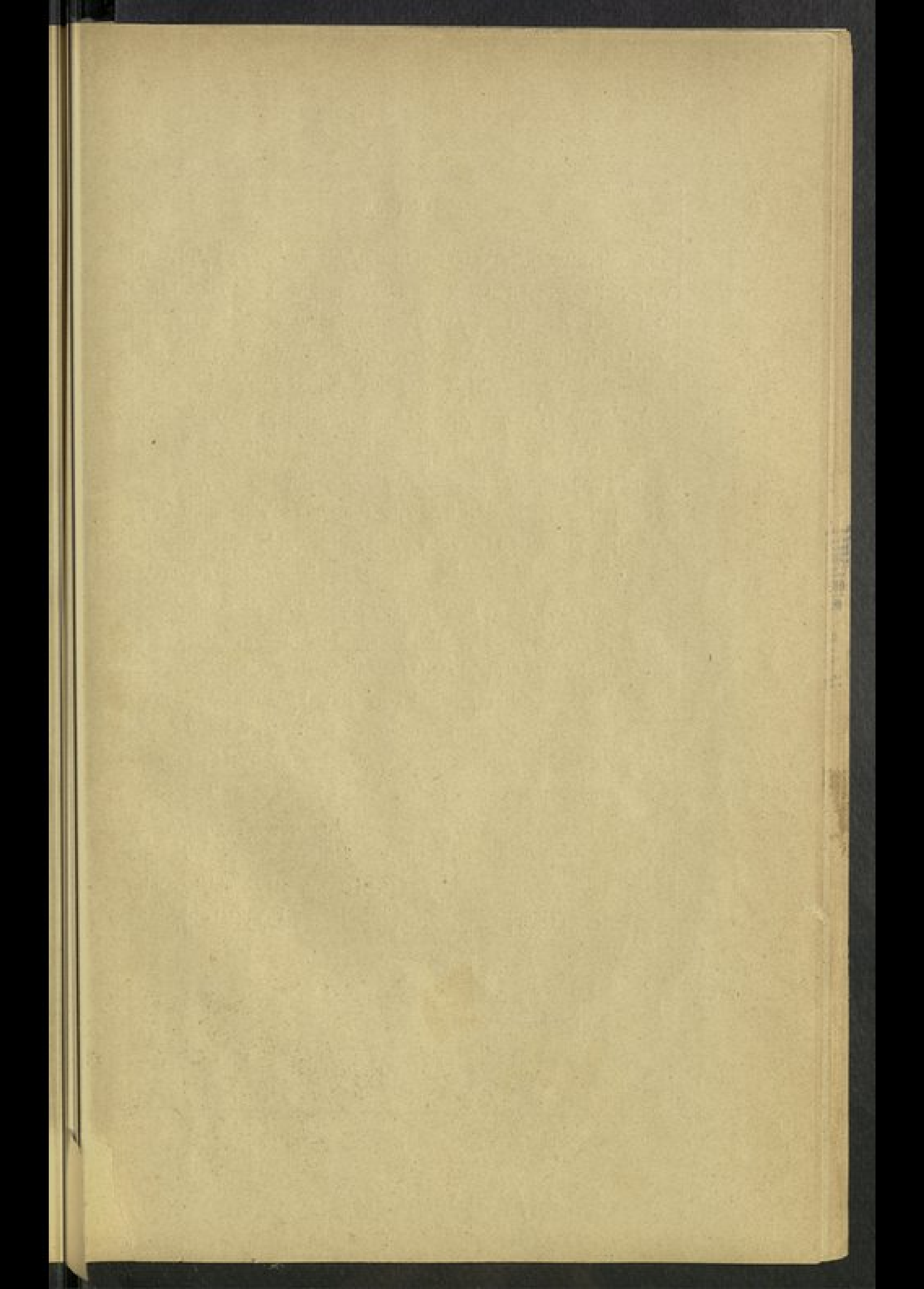
واما النسل الذي صدر عنه الايمان والحرية والنزاهة والاخلاص وتصورات النفس الغزلية فهو نفس هنود اوروبا والساميين . ويريد بالساميين جميع الشعوب التي كانت تتكلم بلغة من اللغات التي يسمونها سامية (العربية والسريانية والعبرانية والارامية والكلدانية والاشورية والحميرية) . فمن هذين النسلين (هنود اوروبا والساميين) خرج تمدن العالم واديانه الراقية . اما هنود اوروبا فقد كانت ثمار عقولهم تصورات رقيقة وحناناً وعواطف جدية اي عواطف من الزم لوازم الآداب والدين . ومع ذلك فان الدين لم يخرج منهم لانهم كانوا شديدي التمسك بتقاليدهم الدينية القديمة . وانما خرج من الساميين الذين كان لهم في ذلك فضل عظيم على الانسانية

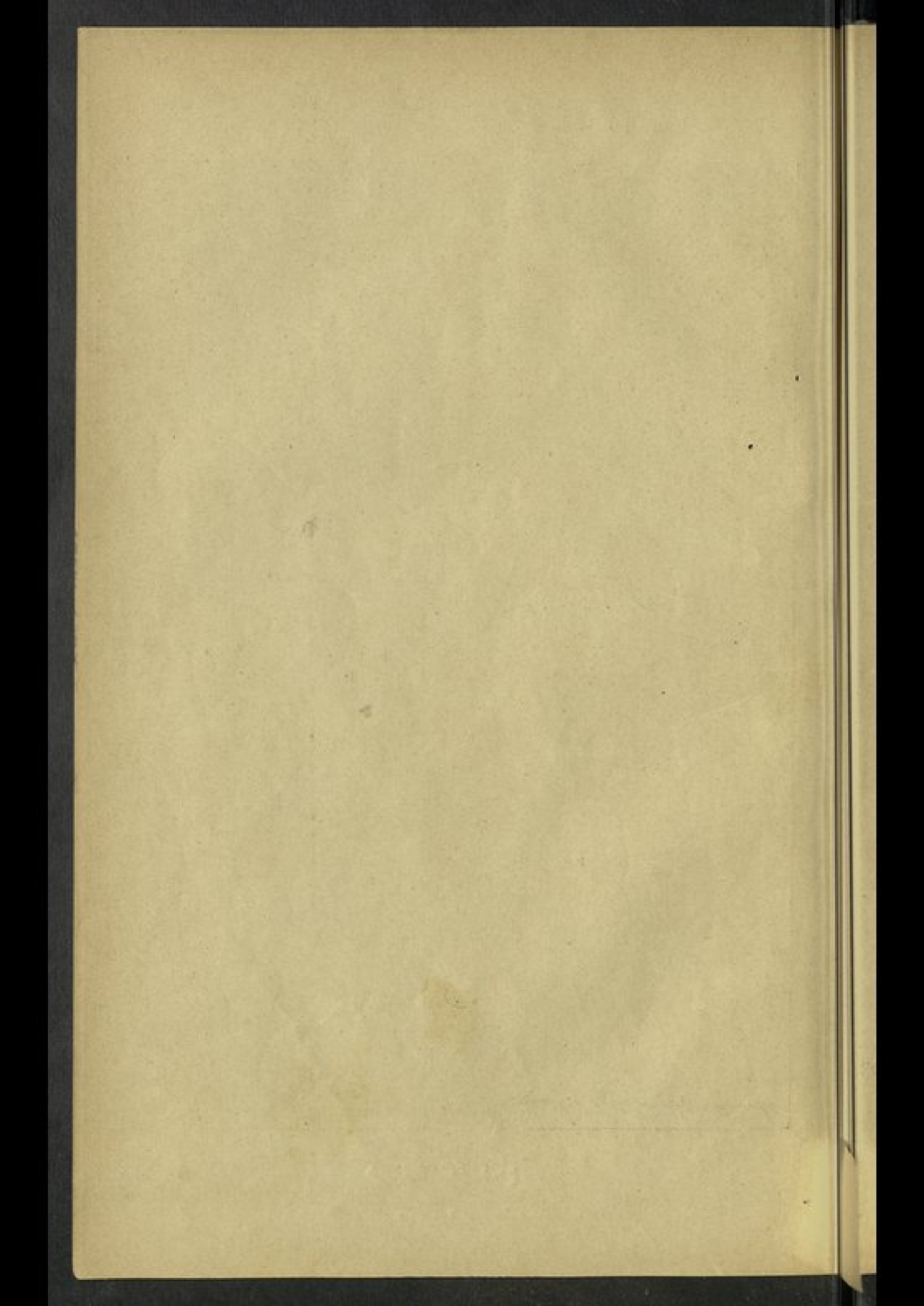
فالذين اعدّوا اذاً سبيل الدين الانسانية في العالم هم **اولئك البدو الذين كانوا سارحين في بلاد المشرق تحت الخيام والاطناب بعيدين عن فساد العالم واضطراباته** . وكان من اخصّ مزاياهم انكارهم على سوريا اديانها المادية المبنية على اللذة ثم بساطة العبادة لانهم لم يتخذوا هياكل ولا اصناماً . وكان في جملة قبائلهم قبيلة بني اسرائيل ولا يخفى ان هذه القبيلة كانت ذات صلات قديمة بمصر وقد اقتبست من المصريين اشياء يعسر على التاريخ حصرها وذلك مما زاد في كراهتها للوثنية . فهذه القبيلة تمَّ لها في ذلك الزمن الحصول على «توراة» اي شريعة مكتوبة على الواح حجرية وفيها مبادىء ادبية حقيقية واصول المساواة الاجتماعية . وكان لهذه القبيلة شيوخ ممتازون بالمعرفة والشعب يستشيرهم في المسائل المعضلة وكانوا يُدعون انبياء . اما كهنتهم فانهم كانوا يُشبهون الكهنة الذين تقدموهم ولا يمتازون عنهم الا بان الشؤون الكهنوتية عند كل واحد منهم كان مرجعها الى رأيه . وكان الانبياء

الذين تقدّم ذكرهم من حفاظ المبادىء الديموقراطية القديمة التي كانت خاصة بالقبيلة ولذلك كانوا يكرهون كل تنظيم سياسي يرام ادخاله الى بني اسرائيل لجعلهم كباقي الامم التي تليهم هذا فضلاً عن عدائهم للاغنياء . فهؤلاء الشيوخ كانوا السبب الاصلي في تقدم الشعب اليهودي في الدين على سائر الشعوب . ولكن لما هجمت السلطة الاشورية على ذلك الشعب وسحقته لاصغائه الى نصائح اولئك الشيوخ قام الشيوخ اصلاحاً لخطائهم ينادون بان مملكة يهوذا ستدوم الى الابد وان اورشليم ستكون عاصمة الدنيا كلها . ثم طرأت انقلابات كثيرة على الشعب اليهودي اخصها قيام الدول الكبرى في آسيا بعضها يتلو بعضاً فانقطع امل بني اسرائيل من عودة الملك اليهم فصرفوا نظارهم عن الارض الى السماء وازدادوا تمسكاً بالشؤون الدينية . وقد صاروا حينئذٍ يرضخون لكل نير يوضع على اعناقهم على شرط ان يحترم ولي امرهم عاداتهم ودينهم . ومنذ ذلك الحين لم يعد عدوّهم الا كل من كان عدواً للاله الواحد **ولم يعد لهم من وطن ولا شريعة غير الشريعة الدينية**

ثم ظهر كتاب دانيال فهاج اشجانهم وزاد املهم في قرب قدوم المسيح المنتظر لانقاذهم من ضيقهم . فازدادوا تمسكاً بالشريعة الموسوية وصاروا يقتلون كل من يخالفها . وكلما كانت تثقل عليهم يد الوثنيين الذين كانوا اولياء امرهم كانوا يزدادون انقطاعاً عن الارض ويوجهون انظارهم الى العالم الثاني . وكان العالم مشغولاً عنهم في ذلك الزمان بحوادثه الكثيرة فلم يلتفت الى ما كان يحدث عندهم . ولكن الامبراطورية الرومانية كانت حديثة النشأة اذ ذاك وقد قامت بعد حروب واهوال فكان الناس يتوقعون للعالم دوراً سلمياً في عهدها . واما اليهود فانهم كانوا يتوقعون حينئذٍ بصبر فارغ قدوم « مسيا » المنتظر وكان كثيرون من صلاحهم يقضون الليالي والايام حول الهيكل صائمين مصلين وهم يسألون الله ان لا يتوفاهم قبل تحقيق آمال شعب اسرائيل . وكان الانتظار شديداً حتى ان كل واحد من الناس كان يشعر بقرب حدوث شيء عظيم »

ثم جاء المنتظر ورقى الدين الى درجة من الكمال والسمو لم يبلغها قبل ذلك







صورة ميلاد الطفل يسوع

الباب الرابع

في تاريخ المسيح

ملخص تلخيصاً مما كتبه الفيلسوف رنان

الفصل الاول

التاريخ المسيحي · وصف الناصرة وطن يسوع · مهد الديانة المسيحية

وُلد يسوع في الناصرة · وكانت قبله بلداً خاملاً لم تشتهر بشيء ولم يرد لها ذكر لا في التوراة ولا في التلمود ولا في مؤلفات يوسيفوس · ولذلك كان معاصروه يسمونه «الناصري» · وقد كانت ولادته في عهد اغسطس قيصر وربما كان ذلك سنة ٧٥٠ من بناء رومه · اي انه ولد قبل السنة الاولى من التاريخ المسيحي الذي اصطلحت عليه اليوم الامم المسيحية ببضع سنوات

ومن الراجح ان الناصرة لم تكن في زمن ولادته تختلف كثيراً عنها اليوم · فان الهواء والجوّ لم يتغيرا في جميع بلاد سوريا عما كانا عليه يومئذٍ ولذلك لم يتغير شيء على الارجح من طرق بناء منازلها واتجاه دورها وشقّ شوارعها · ففي تلك الشوارع المفروشة بالحجارة وتلك الساحات الصغيرة التي هي ملتقى شوارع كثيرة تفصل الاكواخ والمنازل بعضها عن بعض كان يلعب الصبي يسوع · ولا ريب ان منزل يوسف كان شبيهاً بتلك الغرف الصغيرة التي لا يدخلها النور الا من بابها والتي تُتخذ لكل شيء حتى الطبخ والنوم · ولا فراش فيها غير «حصيرة» على اطرافها بعض مساند «مخدات» موضوعة على الارض ووعاء او

وعائين من الفخار وخزانة مدهونة

وكانت الناصرة بلدة صغيرة قائمة في علية ارض منبسطة على متن بعض الجبال . اما سكانها فانهم يبلغون اليوم (في زمن رنان) اربعة آلاف نسمة فكأنها الناصرة القديمة لان المؤرخ يوسيفوس يقول ان اصغر قرى الجليل كان عدد نفوسها خمسة آلاف نسمة وان كان هذا القول لا يخلو من مبالغة . والبرد في الناصرة شديد في زمن الشتاء ولكن الهواء جيد جدًا . وكانت الناصرة في ذلك الزمن شبيهة بكل قرى اليهود يومئذٍ اي انها كانت مؤلفة من منازل مبنية من غير هندسة ولا نظام ومنظرها شبيه بمنظر القرى الاسيوية . وربما لم تكن منازل الناصرة تختلف عن المنازل الحجرية المربعة القائمة في جهات لبنان العامرة والتي اذا اضيفت اليها اشجار الكرمة والتين المغروسة بجانبها كان لها منها منظر رائق . اما المكان الذي بُنيت فيه الناصرة فانه مكان شائق وليس في الدنيا كلها مكان افضل منه للتأمل في السعادة والراحة . ولا تزال هذه المدينة الى اليوم مقامًا جميلًا . اما سكانها فهم قوم الفوا اللطف والبشاشة . وحدائقها باردة خضراء . وقد وصف « انطونين مارتير » الناصرة في اواخر القرن السادس عشر فشبَّه ارضها بارض الجنة من فرط خصبها . ولا يزال في غربي المدينة اودية خصيبة ينطبق عليها وصفه . اما العين التي كانت مركز الحركة في هذه المدينة وكان حولها السرور شاملًا فقد هُدمت ولا يجري الآن من نبعها سوى ماء كدر . واما جمال النساء الناصريات اللواتي يجتمعن حولها في المساء — ذلك الجمال الذي كان مشهورًا عنه في القرن السادس عشر انه هبة للناصريات من مريم العذراء فانه لا يزال يترقرق في وجوههن . فهناك الشكل السوري الجميل في اتم خلقته . ولا شبهة في ان العذراء كانت تقف في صباها بين اولئك النساء حول العين ومعها اناء الماء تستقي منها . وقد قال انطونين مارتير ان نساء اليهود يُكرمن المسيحيين في هذا المكان مع انهن يكرهنهم كرهًا شديدًا في غيره . فكأنَّ هواء وطن السيد لطف اخلاقهن . واذا نظرت في البغض الديني وجدته في هذا المكان اخف منه في سائر الامكنة

واما منظر الافق من المدينة فانه قصير ضيق ولكنك اذا صعدت الى الآكام المشرفة على المدينة انبسط امامك منظر جميل يسحر الالباب . فانه من الجهة الغربية يظهر لك جبل الكرمل ممتدًا الى البحر وداخلًا فيه ويليه غيره من الجبال بينها وادي الاردن وسهول بيريا المرتفعة . اما في جهة الشمال فانك ترى جبال صفد متجهة نحو البحر وهي تستر عنك عكا وتُظهر لك خليج حيفا

فهذا كان افق يسوع . هذا كان في صباه المنظر الدائم امام عينيه . هذا هو مهد ملكوت الله وسرير الديانة المسيحية . فاذا بقي العالم مسيحياً في مستقبل الزمان وصار اكثر احتراماً لاصول الدين واشد رغبةً في استبدال الاماكن المقدسة المشكوك فيها باماكن حقيقية فما عليه الآن ان يبني كنيسة على هذه الآكام التي كان يسوع يجلس عليها و يشاهد العالم منها(١) هناك يجب ان تُقام الكنيسة الكبرى التي يجب ان يحجَّ اليها المسيحيون من جميع اقطار العالم . هناك حيث يرقد يوسف النجار والوف من ابناء الناصرة المنسيين يحق للفيلسوف ان يقف ويتأمل في مجرى حوادث العالم ليعزي نفسه عما يصادفه الانسان في هذه الحياة من الفشل والخيبة في اعزما يكون لديه ولكي يتحقق ان العالم سائر الى غرض الهي لا يصرفه شيء عنه مهما قام في سبيله من المصاعب والعثرات

الفصل الثاني

التعليم عند اليهود يومئذٍ . لغة يسوع

تلك هي المناظر الطبيعية الجميلة التي ربي يسوع بينها . ولقد نشأ يسوع في قريته وتعلم الكتابة والقراءة (انجيل يوحنا الاصحاح ٨ العدد ٦) وكان معلم المدرسة في القرى اليهودية يُدعى « الحزان » او القارىء في المعبد . ولا يحتمل ان يكون السيد قد تعلم اللغة اليونانية في صباه وانما كانت لغته اللغة السريانية ممزوجة بالعبرانية وهي اللغة التي كان يتكلمها اهل فلسطين في ذلك الزمان . اما اللغة اليونانية فقد كانت محرمة على اليهود . وقد حرم بعض روءسائهم من تعلمها فقال « ان من يعلّم ابنه علوم اللغة اليونانية ومن يربي الخنازير سواء في النجاسة » وسُئل احد روءسائهم في اي وقت يجوز تعليم العلوم اليونانية للاولاد فاجاب « يجوز ذلك في كل وقت غير الليل والنهار لانه مكتوب انهُ يجب درس الشريعة في الليل والنهار » فكأنهُ اجابهُ لا يجوز درسها . ومع ذلك فقد كان بعض اليهود يدرسون العلوم اليونانية ويحاولون ادخالها الى الآداب اليهودية . واشهرهم نقولا داماس او الدمشقي الذي كان اشهر علماء عصره و يوسيفوس الذي قال عن نفسه انه مستثنى بذلك عن باقي اليهود . ولقد نشأت في مصر طائفة من علماء اليهود كانت تقتبس العلوم اليونانية وتنشرها ونشأ فيها الفيلسوف العظيم فيلون الاسكندري ولكن يهود فلسطين كانوا يعدون

---

(١) قد بُنيت اليوم هذه الكنيسة كما تمنى رنان

هذه الطائفة مفصولة عنهم . ولقد كان انفصالها تاماً حتى انه لم يرد لها ذكر في التلمود . وقد كان زعيمها فيلون الذي اشرنا اليه تعاليم شبيهة بتعاليم السيد من حيث الدعوة الى الله المحبة ومحبة الله والاحسان والراحة في حضن الله

واذا كان السيد لم يقف في صباه على الفلسفة اليونانية وعلومها فلا ريب انه وقف على فلسفة هلل الفيلسوف اليهودي الذي عاش قبل ظهوره بخمسين عاماً معيشة الفقر والضعة ودماثة الاخلاق وكان يعارض الكتبة والفريسيين

الفصل الثالث

امل بني اسرائيل في الاستقلال حين فتح بابل . خيبة املهم حين دخول الرومانيين الى آسيا . ابناء هيرودوس حكام فلسطين تحت سلطة الرومانيين في نحو زمن المسيح . ثوران النفس اليهودية لهذه العبودية . حكام اورشليم الرومانيين . خروج الغولونيتي احتجاجاً على الاحصاء

اما الوسط المضطرب الذي ربي فيه السيد فلا مثيل له في الاضطراب في تاريخ العالم غير الوسط الذي نشأت فيه الثورة الفرنسوية . فان الشعب اليهودي [illegible] سبي بابل مهضوماً مضطهداً فانتبهت قوى نفسه كلها واتجهت الى غرض واحد وهو الانتقام من اعدائه وبسط جناح سلطته على جميع اقطار العالم طبقاً لما كان يجيء في نبوءات انبيائه . ولو كان الشعب الاسرائيلي يعرف التعاليم اليونانية التي كان من مقتضاها اعتبار الانسان عنصرين مستقلين احدهما الروح والآخر الجسد وانه اذا تعذبت الروح في هذه الحياة فانها تستريح في الحياة الثانية لسري عنه شيء كثير مما كان يجده من عذاب النفس واضطراب الفكر بسبب ذله وخضوعه مع ما كان يراه في نفسه من الامتياز الادبي والديني عن الشعوب التي كانت تذله . ولكن الفلسفة اليهودية كان من مقتضاها السلطة الفعلية في نفس هذا العالم . فانه يؤخذ من اقوال انبيائهم وشيوخهم ان الصالحين يعيشون في ذاكرة الله والناس الى الابد وهم يقضون حياتهم قريبين من عين الله ويكونون معروفين عند الله . اما الاشرار فلا . هذا كل جزاء اولئك وعقاب هؤلاء . ويزيد الفريسيون على ذلك ان الصالحين يُنشرون في هذه الارض يوم القيامة ليشتركوا في ملك المسيح الذي يأتي لينقذ الناس ويصبحون ملوك العالم وقضاته وهكذا يتنعمون بانتصارهم وانخذال الاشرار اعدائهم . وعلى ذلك تكون مملكتهم هذا العالم نفسه

فلما انتصر قورش الفارسي وفتح بابل خُيل لليهود انه قد انفتح في وجههم باب جديد

وعاد اليهم ملكهم . فتآخى كهنة الفرس وكهنة اليهود . ولكن السلطة اليونانية والرومانية لم تلبث ان دخلت الى آسيا بقوة وشدة فانقطع امل بني اسرائيل من عودة الملك اليهم فعادوا الى احلامهم الماضية من دعوة «مسيا» لانقاذهم واعادة ملكهم وتحقيق نبوءات انبيائهم . وقد اشتدّ ذلك عليهم بعد خروج البلاد من يد اسرة الملك هيرودس الى يد الرومانيين . فان هذا الملك العظيم الذي يشبهه بعضهم بسليمان كان قد ولى ابناءه الثلاثة جميع بلاد فلسطين تحت سيادة الرومانيين فكان شانهم معه شان امراء الهند المستقلين اليوم . فكان ابنه انتيباس والياً لبلاد الجليل وبيريا وكانت الناصرة تابعة لولايته . وابنه فيليبوس والياً لغولونيتيا وباتانيا . وابنه ارخيلاوس والياً لاورشليم . وقد توفي هيرودس الكبير في نفس السنة التي ولد المسيح فيها . وبعد انقضاء عشر سنوات على وفاته عزل اوغسطس قيصر ارخيلاوس ابن هيرودس والي اورشليم لانه كان ضعيف الرأي سيء الادارة ثم ضمّ كل ولاية يهوذا الى السامرة وادوم وجعلها تابعة لسوريا حيث كان يقيم بوبليوس سولبيسيوس كيرينيوس احد اعضاء مجلس الشيوخ الروماني نائباً امبراطوريا من قبل القيصر وحاكماً على تلك القطعة كلها . ومن هذا الحين قضي على استقلال مملكة اورشليم . فزاد ذلك في بأس اليهود واثار ثائرهم لانهم كانوا يعتقدون الرجس والنجاسة في التمدن الروماني الذي تسلط عليهم . وقد ولي اورشليم اولاً كوبونيوس ثم جاء بعده ماركوس امبيفوس فآنيوس روفوس ففالاريوس كراتوس . ووليها بعدهم في عام ٢٦ للميلاد بنطس بيلاطس صاحب الشان في الحوادث المسيحية الاولى . وكان هؤلاء الولاة تابعين لوالي سوريا ولا شغل لهم غير اخماد نار الفتنة التي كان يضرمها اليهود تحت اقدامهم

ذلك ان غلاة الدين من انصار شريعة موسى قاموا في ذلك الزمان يعارضون السلطة الرومانية فكانوا يكسرون النسور التي هي اعلام رومة ويحطمون التماثيل التي اقامتها اسرة هيرودس لانها في نظرهم آثار وثنية لاسيما وان الذين نصبوها لم يراعوا في صنعتها الشريعة الموسوية . وكان الموت عقاب كل من يُقدم على اثارة الفتنة ومقاومة السلطة ولكن اولئك المتحمسين في دينهم كانوا يستعذبون الموت في الدفاع عن شريعتهم . فنشأ عن ذلك ظمأ الى الموت والاضطهاد سببه الرغبة في الدفاع عن الشريعة . فالف اثنان من علماء الشريعة يُدعيان يهوذا بن ساريفيا ومتياس بن مرغلوث حزباً لمقاومة «اصحاب البدع» الرومانية والحملة على تلك الهيئة فامسكهما الرومانيون وعذبوهما وقتلوهما ولكن حزبهما بقي بعدهما . وكانت النفوس كانت قد بلغت بهذه الاضطهادات اقصى درجات

الهياج والاضطراب فظهرت يومئذ شيعة (الكنانيين) او « القتلة الدبتيين » الذين كانوا قد آلوا على انفسهم ان يقتلوا كل رجل يحط من شان الشريعة الموسوية امامهم . وظهر ايضاً اناس يدعون صنع العجائب وشفاء الامراض فكان الشعب يقبل عليهم لان الافكار كانت مستعدة بالتحمس الديني لتصديق كل ما يجيء من فوق الطبيعة

ومن الحركات التي كان لها تاثير عظيم على سير الحوادث في ذلك الزمان حركة يهوذا الغولونيتي او الجليلي . فان كيرينيوس والي سوريا وفلسطين امر في السنة السادسة من الميلاد باحصاء عدد نفوس اليهود . وكان اليهود لا يجهلون ان الاحصاء مقدمة لوضع الضرائب على السكان والقد اشتد هياجهم على الملك والنبي داوود يوم امر باحصاء سكان مملكته وتهدده الشيوخ بغضب الله . وذلك لانهم يعتبرون دفع الضرائب ضرباً من ضروب الكفر بالله لان الله هو سيد الامم وحده واليه وحده تُدفع الضرائب لا الى ملوك الوثنيين . ولذلك كانوا يعتبرون اموال الخزانة العمومية اموالاً مسروقة كما جاء في تلمود بابل

فلما درى اليهود بامر كيرينيوس بالاحصاء بلغ الهياج اشده فقام منهم رجلان احدهما يُدعى يهوذا وهو من قرية جمالة القائمة في شرقي بحيرة طبريا وثانيهما فريسي يدعى صادوق ينكران دفع الضرائب ويحرضان الناس على الامتناع عن دفعها . وكان من مبادئهما ان حرية الانسان افضل من حياته فاذا كان احد الحكام يزعم انه سيدي وولي امري ويوجب علي دفع ضريبة له فاولى بي ان اموت من ان اعترف بسيادة علي غير سيادة الله . وقد فشا امر هذا الحزب في اليهودية ولكن يوسيفوس لم يذكر عنه شيئاً كثيراً مخافة ان يلقي التهمة على ابناء وطنه انما وضع يهوذا الغولونيتي عند كلامه عنه في جملة فلاسفة اليهود واعتبره مؤسساً لمبدإ رابع غير مبادىء الصدوقيين والفريسيين والايسنيين مع ان فكرته بسيطة لا تستوجب كل هذا الاهتمام . وذلك مما يدل على انه كان ليهوذا هذا مطامع ومطامع سياسية غير التي تقدمت . ولا يبعد ان يكون قد جعل نفسه رئيس حزب غرضه الاشتغال بما يختص بمجيء المسيح المنتظر . ولقد لقي يهوذا الغولونيتي الموت جزاء هذه الثورة ولكن حزبه بقي حياً بعده . ولا نعلم هل رآه يسوع وشهد نهضته ولكن مما لا ريب فيه انه قد وقف على مبادئه . ولذلك يقول بعضهم انه لما جاء قوم الى السيد ليجربوه وسألوه عن الجزية فاجابهم « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » كان يريد بذلك ان مملكتي غير مملكة يهوذا الغولونيتي واصلاحي غير اصلاحه

وهكذا كانت بلاد الجليل في ذلك الزمان عبارة عن تنور حام تضطرب فيه العناصر

المختلفة . وكانت السلطة الرومانية لا تطأ على مثيري الخواطر الا متى استفحل امرهم لان الرومانيين كانوا يمنحون محكوميهم من الحرية اكثر مما يمنح الاوروبيون محكوميهم في هذا الزمان . وحسبنا دليلاً على ذلك ان البوليس الروماني لم يعترض السيد المسيح في اثناء تعاليمه الا حين رُفعت عليه الشكوى من اليهود . فكانت هذه الحرية باعثاً على زيادة الافكار اليهودية انتشاراً

الفصل الرابع

شمال فلسطين وجنوبها . وصف طبيعتها . بدء تعليم يسوع

اما فيما يختص بالافكار المسيحية فيمكن قسمة اليهودية الى قسمين . قسم الشمال الذي فيه الجليل ومن ضمنه الناصرة والقسم الثاني اورشليم . على ان كل الاعمال الحسنة والمبادىء السامية صدرت من القسم الاول وهو الشمال . اما اورشليم فكانت متمسكة بالتقاليد القديمة كل التمسك . من الشمال خرجت الكنعانية المتواضعة ومريم المجدلية و يوسف الرؤوف والعذراء مريم . ولولا الشمال لم تتسلط اورشليم على العالم

وكانت الطبيعة في تلك الجهات الشمالية في غاية الجمال ومنتهى الرونق فكأنها خُلقت لتملي على الناس وتوحي اليهم نور المبادىء الادبية السامية . فانه بينما ترى نواحي اورشليم صلعاء جرداء تقريباً ترى الجليل ونواحيها في غاية الخصب والاقبال . فارضها تكتسي في شهري مارس وافريل (اذار ونيسان) بساطاً جميلاً منتظماً من الازهار الملونة بالوان لا مثيل لها . وحيواناتها صغيرة ولكنها في غاية اللطف والدعة . وربما وقعت بعض طيورها على ساق عشبة صغيرة فلم تُملها من خفتها . بل ربما دنت منك حتى صارت بين قدميك تقريباً وذلك لالفتها وعدم نفورها . وقد ترى في السواقي سلاحف ذوات اعين قوية النظر لطيفة و بطاً ترى عليه لوائح الحياء والرصانة معاً يترك كل خوف ويدنو منك . ولستَ تجد في جميع بلاد العالم بلاداً جبالها اجمل من جبال تلك الجهات . ولا ريب ان يسوع كان يحب الجبال من حبه لجبال وطنه . فانه كان كثير الصعود الى الجبال وقد القى عليها اسمى خطبه وعمل فيها اعظم اعماله . وكان اذا صعد اليها تغيرت هيئته وازدادت نفسه الكريمة بلاغة وحكمة

ففي وسط هذه الطبيعة الضاحكة بدأ يسوع يعلّم فكان تعاليمه عبارة عن نزهة دائمة وسرور دائم . ويقال انه كان يسير احياناً الى القفار المحرقة التي تلي بلاد الجليل ويقيم فيها

للتأمل والافتكار . ولكنه هنالك كان لا يجد الا اله ايوب اله القوة والصرامة والعقاب . اما حين رجوعه الى الجليل فانه كان يجد تحت سمائها وبسط آكامها الخضراء ومروجها الفيحاء اله المحبة والسلامة اباه وابانا الذي في السموات . وكان في كل عام يحج مرة الى اورشليم مع حجاج الناصرة وهناك يختلط بشعبه ويقف على ما كان يجول في نفسه . فكأن الحج كان عبارة عن التقاء ابناء الشعب الاسرائيلي في اورشليم مرة في كل عام

ولما مات يوسف انتقلت مريم العذراء بولدها الى قانا الجليل . وربما كان اصل العذراء نفسها من قانا هذه . اما هذه القرية فقد كانت قائمة على مسيرة ساعتين ونصف من الناصرة . وفيها صرف المعلم العظيم قسماً من شبابه وظهرت اول اعماله

وكان السيد نجاراً كيوسف ولم يكن ذلك مما يحط شان الانسان في ذلك الزمان اذ قد جرت عادة اليهود يومئذ بوجوب تعليم كل منقطع الى الشؤون العقلية صناعة ما . ولذلك كان كثيرون من اكابر علماء اليهود يحسنون صنائع اليد مثل « ربي يوحنان » الذي كان اسكافاً « وربي اسحق » الذي كان حداداً والرسول بولس الذي كان صانع بسط وسجادات . ولا يعلم احد كيف ابتدأ يسوع تعليمه ولكن الثابت انه اتخذ فيه طريقاً جديداً . وقد راينا ان يهوذا الغولونيتي كان يفضل الموت على ان يلقب احداً «سيد الامة» غير الله وحده ولكن يسوع ترك لقب « السيد » لمن شاء ان يتلقب به ولقب الله بلقب احلى منه اعني : ابانا . وعلى هذا الاساس بنى تعليمه السامي الذي يجعل البشر اخوة على الارض والخالق في السماء اباً لهم رؤوفاً بهم شفوقاً عليهم تواباً رحيماً يطلع شمسه على الخطاة وعلى الصالحين

ولم يكن يسوع يعلم ضد الشريعة الموسوية ولكن كان يظهر من كلامه عنها انه كان يراها غير كافية . ومما ساءه منها انها تضع وسيطاً بين الانسان وبين الله والاشتغال باعراض الامور عن جواهرها . ولذلك كان عدواً لدوداً للتفاصيل الدينية التي كانت تخنق الاصل وكان ضد الكهنة الذين لم يكن لهم شغل غيرها

الفصل الخامس

يوحنا المعمدان وما رواه المؤرخ يوسيفوس عن حادثته

وفي هذا الوقت انتشرت في جميع انحاء فلسطين شهرة رجل عظيم كان يعيش في البرية مرتدياً بجلود الحيوانات ومغتذياً من العسل والجراد البرّي . وهذا الرجل هو يوحنان او يوحنا الملقب بالمعمدان . وكانت اقامته على شاطىء نهر الاردن في القفار التي تليه . وقد بلغت شهرته اعظمها في سنة ٢٨ من الميلاد المسيحي اي بعد انقضاء ١٥ عاماً على ملك طيباريوس . وكان يوحنا محبياً كبير النفس جريء القلب فكان يذم الكهنة الاغنياء الذين يحبون المال والفريسيين والكتبة ويدعو الفقراء والضعفاء الى التوبة للنجاة من الضيق والذل ولان ملكوت الله صار قريباً . فتهافت الشعب عليه ليعمده في الاردن بحسب طريقته الجديدة . وكان في جملة الذين قصدوه الشاب يسوع وتلامذته الاولون . وقد اقام يسوع حيناً بازاء يوحنا المعمدان ثم دخل الى البرية القريبة من هناك ليفتكر بما كان في نفسه وما كان يقوله يوحنا . وكان مشهوراً لدى اليهود حينئذٍ ان تلك البرية مسكن للابالسة والشياطين فقالوا ان ابليس جاء يجربه . وبعد اقامته في البرية اياماً قضاها في التأمل والافتكار خرج منها فسمع ان الحكومة قبضت على يوحنا المعمدان وزجته في السجن . فعاد بتلامذته الى الجليل لئلا يُتهم بالاشتراك في حركة يوحنا . اما سبب القاء القبض على يوحنا فقد ذكره المؤرخ يوسيفوس بالتفصيل وهذه خلاصته

لما كان يوحنا في الجهات التابعة لبيلاطس لم يمسه بيلاطس بسوء على ما يظهر ولم يضايقه . ولكنه لما اقام في جهات الاردن واخذ يعمّد ويعلّم تحمس الشعب لكلامه البليغ وسلطته على النفوس حتى قد حسبوه ايليا عاد ونُشِر . فخشي انتيباس حاكم تلك الجهات عاقبة هذا الامر لان الحركة السياسية كانت ظاهرة في اقوال يوحنا من ان اكثرها كان موجهاً الى ذم ملوك العالم وحكامه . فبقي انتيباس يراقبه حتى حدث له معه حادث شخصي حمله على سجنه

وذلك انه كان لهيرودس الكبير حفيدة تدعى « هيروديا » وكانت طماعة قاسية محبة للخلاعة والسلطة فازوجها جدها هيرودس الكبير من عمها هيرودس ابن مريان . وربما كان ذلك بغير رضاها لان زوجها كان محروماً من حق الملك والولاية . فاصبحت هيروديا بذلك احط من نساء اقربائها شأناً لان زوجها ساقط الحق

لا يملك ابداً وهي لطمعها كانت تريد الوصول الى الملك مهما بذلت في سبيله ٠ وكانت هيروديا جميلة فعزمت على اتخاذ انتيباس الذي تقدم ذكره وسيلة الى غرضها ٠ وكان انتيباس هذا مقترناً باميرة عربية وهي ابنة الحارث ملك بتره وامير القبائل الضاربة ماوراء بيريا مملكة انتيباس ٠ فسعت هيروديا لدى انتيباس في ان يطلق امرأته العربية وهي تتزوج به ٠ فرضي انتيباس بذلك من حبه لها ٠ فدرت بهذا الامر زوجته العربية فعزمت على الفرار ٠ فجاءت زوجها واخبرته انها تريد السفر الى ماكور وهي قلعة حصينة على حدود مملكة ابيها وذلك للسياحة قليلاً في اراضيه فاجابها زوجها الى ذلك وبعث معها جنداً لحراستها ٠ اما ابوها فقد كان اعدّ لها وسائل الفرار من قلعة ماكور على يد القبائل التي كانت ضاربة هناك على الحدود فاخذت تنتقل من يد قبيلة الى يد قبيلة تليها حتى اوصلوها الى قاعدة مملكة ابيها ٠ ثم اقترن انتيباس بهيروديا وكان الزواج بالاقارب الى هذا الحد محرماً عند قدماء اليهود وقد سبق لاسرة هيرودس مثل ذلك لان اليهود كانوا لا يزوجونها ولا يتزوجون منها لكراهتهم لها

فلما انتشر خبر زواج انتيباس بهيروديا سخط قدماء اليهود حفاظ التقاليد القديمة ونادى يوحنا المعمدان ان هذا الزواج غير جائز ٠ فامر عند ذلك انتيباس بالقبض عليه وسجنه فسجنوه في قلعة ماكور التي تقدم ذكرها وكان انتيباس قد استولى عليها بعد فرار زوجته العربية منها

وكان سجن يوحنا في السنة التاسعة والعشرين من ولادة يسوع

الفصل السادس

التعاليم المسيحية

ولما عاد يسوع من جهات الاردن اشتدت سلطته على الشعب وعلى تلامذته فاخذ يعلمهم ويعظهم ٠ وقد عدل في تعاليمه عن مقاومة الهيئة الحاكمة وقضى باحترام السلطة والملوك اذ اوجب دفع الجزية الى قيصر ولكن هذا الاحترام كان « سطحياً » ومقروناً بشيء من التهكم ٠ ذلك لان الملوك واصحاب السلطة لا سلطان لهم على نفوس الناس ٠ وليس الحرية والحق من شؤون هذا العالم المملوء بالشرور بل من شؤون العالم الثاني ٠ فليس ثمت ما يوجب كل هذا الاهتمام بشؤون هذا العالم بل يجب احتقار الدنيا وملاذها وتوجيه قوى النفس كلها الى الحياة الثانية ٠ وبهذا التعليم وضع للنفوس في هذا العالم اساس حرية

جديدة مستقلة عن كل سلطة وجعلها مستريحة هادئة مهما عصفت بها عواصف المصائب والاحزان . ولا يُنكر ان بعضاً من فلاسفة اليونان كالرينونيين مثلاً استطاعوا انشاء هذه الحرية في نفوسهم وعاشوا بها احراراً في وسط الظلم والاضطهاد اذ لم يكونوا يعبئون بمصاب او يبالون بالم ولكن لم ينقطع احد منهم عن هذا العالم انقطاع المسيحيين و يحسب الدنيا وطناً وقتياً له والآخرة الوطن الحقيقي

ومع ذلك فربما لم يسلم هذا التعليم من اعتراض قوي . وهو ان وجوب اعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله قد يكون اقوى وسيلة لمساعدة الظالم واحتمال نير المظالم وفي ذلك ما فيه من انتشار فساد الاحكام والرضوخ لحكام الظلام لانه يقضي باحترام كل سلطة تقوم ولو كانت جائرة فاسدة . ولذلك لا اخطئ اذا قلت ان الديانة المسيحية قد اضعفت من هذا الوجه واجبات الوطني لوطنه وساعدت في اسلام العالم الى السلطات الجائرة . ولكنَّ ما انشأته للنفوس من الحرية في العالم وجعلها المسيحيين الاولين في القرون الثلاثة الاولى جمعيات حرة في وسط الاضطهاد لا حاجة بها الى السياسة ولا دخل لها فيها قد محا ذلك النقص

فالذي امتازت به تعاليم المسيح انما هو سموها عن العالم وشوفونه وغلوها في جو الفضيلة والكمال البعيد . وما الحكومات بموجبها سوى قوات مادية ارضية لا قدر لها ولا قيمة . وهي شديدة على العظمة والعظماء والغنى والاغنياء . ولكن اذا كان يسوع قد حارب اولئك وهولاء فما حاربهم ليصرف غناهم وعظمتهم الى غيرهم ولكن لملاشاة تلك العظمة وهذا الغنى لانهما اصل كثير من الجرائم والشرور . وكان اذا اخبر تلامذته بانه سيكون له شان مع الشرطة تكلم عن ذلك بلهجة تدل على انه لم يكن يحسب نقيصة ولا عاراً الوقوف لدى الشرطة والذهاب للمحاكمة . ولم يوص تلامذته قط بمقاومة الشرطة ومقابلة القوة بالقوة لانه كان يعلم ان الشر لا يُقاوم بالشر وان الانسان لا يتغلب الا بالاتضاع والمسالمة وانكار الذات والعذاب . وهذا الفكر فكر تعذّب الانسان واحتمال عذابه ليقوى به على القوة المادية التي تعذبه فكر سامٍ خاص بيسوع وحده

ولكن اذا كان العظماء والكبراء والاغنياء والكتبة والفريسيون والكهنة لا يدخلون ملكوت الله لانهم مشتغلون عنه بما في ايديهم فمن يدخله ؟ يدخله ابناء الشعب والمتواضعون والضعفاء والفقراء والنساء والاولاد . وبمن يُنشأ ملكوت الله اذا كان اولئك الكبراء والاغنياء يحيدون عنه ولا يسمعون لمن يدعوهم اليه ؟ يُنشأ بهؤلاء الضعفاء والفقراء والنساء والاولاد . بهم يتغير وجه الكرة الارضية . بهم تحدث ثورة عظمى في العالم . وهذه الثورة

تضع الكبار وترفع الصغار وتطأطئ الجباه العالية

الفصل السابع

في كفر ناحوم . المعابد اليهودية القديمة

وبعد مدة انتقل يسوع الى كفر ناحوم واقام فيها وكان عمره ٣٠ عاماً

ولم يكن قبل هذا الحين قد علم تعليماً عمومياً بل خصوصياً فاخذ في التعليم العمومي جاعلاً كفر ناحوم مركزاً لتعليمه ووطناً ثانياً له

وكفر ناحوم هذه مشتقة من كلمتين (كفر) (وناحوم) ومعناها قرية ناحوم وكانت قبله قرية خاملة كالناصرة لم تشتهر بشيء ولم يرد لها ذكر في كتب يوسيفوس الا مرة واحدة ولكنها لم تكن المقصودة بهذه الاشارة بل كانت المقصودة بركة ماء بقربها وهذا يدل على شدة خمولها قبل يسوع لان بركة الماء كانت اشهر منها . وكانت كفر ناحوم مبنية على الطريقة اليهودية اي انه لم يكن فيها شيء من آثار المدنية الرومانية الشائقة التي اقامتها اسرة هيرودس في نواحي فلسطين كالتماثيل الرائقة والابنية الفخيمة التي لا يزال رجال الآثار يعجبون بها الى هذه الايام . وقد سماها اليهود بعد المسيح « مدينة المينيم » اي المراطقة . يعنون المسيحيين

وكان سكان تلك البلاد الجميلة يجتمعون مرة في كل اسبوع وذلك في يوم السبت للصلاة ومطالعة كتبهم الدينية . وكان اجتماعهم في كل قرية في مكان يسمونه « مكان الاجتماع » او معبد . وكان هذا المكان عبارة عن قاعة مربعة الزوايا قائمتها وهي مزينة على الطريقة اليونانية اذ لم يكن لليهود طريقة خاصة . ولا يزال في نواحي الجليل الى هذه الايام كثير من بقايا المعابد اليهودية القديمة . وقد كان يوضع في داخلها مقاعد للجلوس ومنبر للقراءة وخزانة لوضع الكتب المقدسة . وكانت هذه المعابد نقطة عمومية يجتمع فيها اليهود مرة في الاسبوع كما تقدم لقراءة الشريعة واقوال الانبياء . وبما انه لم يكن لليهود في خارج اورشليم كهنة فقد كان لكل واحد الحق في ان يصعد الى المنبر ويقرأ للناس ويفسر القراءة لهم كما يريد . وكان لكل واحد من الحاضرين ان يعترض على القارىء وتفسيره وذلك مما كان يجعل هذا الاجتماع عبارة عن مجمع حر يتبادل اعضاؤه آراءهم وافكارهم . وكان لهذا اجتماع رئيس وشيوخ وحزان وهو القارىء وقد تقدم انه

المعلم ورسل وهم مراسلون او سعاة يستخدمهم رجال المعبد وشماس او حافظ الاشياء المقدسة والمعتني بها · وبذلك كانت المعابد اليهودية في فلسطين شبيهة بجمهوريات صغيرة مستقلة · وكان لها نظام شامل لكثير من شؤون حياة اليهود حتى انها كانت تُصدر قرارات بشان بعض الافراد وتنفذها فيهم على يد الحزان · وكثيرًا ما كان في جملة هذه القرارات العقاب بالضرب · على ان هذه المعابد المنظمة التي كانت منتشرة في جميع انحاء فلسطين هي التي حفظت التقاليد اليهودية منذ الوف من السنين واوصلتها الى هذه الايام دون ان يؤثر فيها ما حلّ باليهود من الاضطهاد في اثناء القرون الطوال الماضية · وكان الجلوس في كرسي في مقدمة الجالسين دليلاً على امتياز الجالس بالغنى او بالتقوى · وكان حق الصعود الى المنبر مطلقاً لكل طالب فكان ذلك باعثاً عظيماً على تسهيل نشر الآراء الجديدة · وهذا مما سهل ليسوع اظهار تعليمه

فانه لما اراد القراءة والتعليم اول مرة في المعبد صعد الى المنبر فقدم له الحزان الكتاب المقدس فقبله يسوع وهو واقف امام الحاضرين رابط الجاش تارة ينظر اليهم بعينيه المهيبتين وتارة ينظر الى الكتاب · ثم اخذ يقراه ويفسر · ولكن تفسيره كان مختلفاً عن تفسير باقي القراء ونفسه جديد على جمهور السامعين · وبما ان الفريسيين كانوا قليلي العدد في جهات الجليل فقد كان ما لقيه منهم من المعارضة في المرة الاولى خفيفاً جدًا ولكنه لو ابتداء تعليمه في اورشليم لما استطاع ان يعلم وقتاً طويلاً بل كان الفريسيون وغلاة الدين اوقفوه عند الخطابة الاولى وحالوا بينه وبين الشعب قبل ان تؤثر فيه كلماته السحرية

ذلك ان كلام يسوع كان عذباً رقيقاً · وكان صوته مؤثرًا في النفوس وبلاغته تتدفق تدفقاً · وكان اسلوبه في الكلام والخطابة واضحاً بسيطاً سهلاً ينمّ على ما في نفسه من الهدوء والرزانة وحب نصرة الضعفاء · فكان صوته يفعل في نفس الشعب فعلاً غريباً وكلامه ينطبق انطباقاً عظيماً على ما في نفوسهم وتصوراتهم البسيطة اللطيفة · وذلك بخلاف ما كان عليه وعاظ اليهود يومئذ من الكلام الجاف الناشف الذي لا يؤثر في النفس ولا يحركها · وهكذا لم يمض وقت طويل حتى صار للمعلم الشاب سلطة كبيرة على الشعب · وكان قد حصر تعليمه في بحيرة طبريا وشواطئها وكانت تلك الجهات يومئذ في احسن حالات الخصب والاقبال خلافاً لما هي عليه اليوم من الخراب والجفاف · ويجدر بنا هنا ان نصفها وصف من زارها ورآها

الفصل الثامن

المدن الخمس على شاطئ بحيرة طبريا

كان على شواطئ بحيرة طبريا في ذلك الزمان خمس مدن صغيرة خلد التاريخ اسماءها كما خلد اسمي رومه واثينا . وهذه المدن هي مجدله ودلمانوثه وكفر ناحوم وبيت صيد وكورزين . اما الآن فلم يعد معروفاً من تلك المدن الصغيرة غير مدينة مجدلة التي منها مريم المجدلية وهي اليوم قرية حقيرة . واما باقي المدن المذكورة فقد طمس الزمان آثارها . فان دلمانوثه مجهولة المكان وغير بعيد ان تكون كورزين مدفونة تحت التراب في الجانب الشمالي . بقيت كفر ناحوم وبيت صيدا وقد ظن بعضهم انهما كانتا حيث اليوم تل حوم وعين التين وخان منيه والعين المدورة ولكن ذلك افتراض لا دليل عليه . فكأنّ كل شيء في تاريخ الحوادث المسيحية ساعد على اخفاء آثار صاحب الشريعة الاولى . ومن المحتمل ان لا يكشف البشر في مستقبل الزمان تلك الآثار التي تودّ الانسانية ان تقد وتقبل مواطئ قدمي السيد فيها

ولم يبقَ في تلك الجهات من المدن المذكورة غير البحيرة والشجيرات الصغيرة وازهار البرية وجو السماء . اما الاشجار فقد انقرضت كلها مع ان تلك الجهات كانت مشهورة بالخصب حتى ان يوسيفوس عدّ خصبها في تاريخه من العجائب لانه كان يجتمع في ارضها الشجر التي تنمو في الاقاليم الباردة والشجر التي تنمو في الاقاليم الحارة والشجر التي تنمو في الاقاليم المعتدلة ولذلك كان الزهر دائماً فيها . واما الآن فيكفي للدلالة على ما فيها من الخراب والجفاف ان يُقال ان السكان يبحثون قبل سفرهم فيها بيوم واحد عن المكان الذي يستطيعون ان يجدوا فيه شجرة واحدة تظللهم من الشمس في اثناء سفرهم . وقد اصبحت شواطئ البحيرة قفراء ولم ارَ عليها حين زيارتي لها سوى زورق واحد صغير يروح ويجيء فوق امواجه التي كانت من قبل مجتمع السفن والناس فيها يلعبون ويضحكون ويتنزهون ويتصيدون . ولكن مياه البحيرة لا تزال كما كانت صافية خفيفة . وعلى البحيرة اسراب كثيرة من الطيور السابحة تتداعب فيها . اما حرارة الهواء على شواطئ البحيرة فانها ثقيلة محرقة . وانخفاض هذه البحيرة عن سطح البحر مائة و٨٩ متراً كما قدّر المستر فيني . وان الذي يزورها ويحس بما في جوها من الحرارة المحرقة يستغرب انها كانت في الزمن الماضي مركزاً لحركات عظيمة لان حرارة الجو في مكان تخمد همة سكانه . ولكن يوسيفوس

روى ان هواءها كان معتدلاً في ذلك الزمان · ولا غرابة في ذلك فان الخصب الذي كان فيها من حيث نمو الاشجار والنبات جدير بان يلطف الهواء ويخفف وطأة «المناخ» · ولعله قد حدث في جوها من التغيير ما حدث في جوّ بر بة رومة من هذا القبيل · واما اسباب الجفاف الحالي والخراب الحاضر فهي الحروب والفتن · فانه بعد انقلاب الصليبيين عملت عوامل الخراب في تلك الجهات فاكلت الاخضر والهشيم · فهل درت ارض جنيساره حين كان يمشي عليها السيد وتلامذته ان هذه الاقدام الخفيفة ستكون سبباً في خرابها الآتي · هل علمت الاماكن التي كانت وطناً ليسوع انها ستبتاع مجدها وشهرتها الخالدة بخرابها وفنائها من الوجود

فعمل المسيح اذاً كان مقصوراً في بدء الامر على هذه المدن الخمس الصغيرة · ولا يحتمل ان يكون المسيح قد دخل الى مدينة طبرية لان اكثر سكان هذه المدينة كانوا من الوثنيين وفيهم الفينيقيون والسوريون والعرب واليونان · وكانت هذه المدينة مقام الحاكم انتيباس والي بيريا والجليل وساجن يوحنا المعمدان · ولكن يسوع كان كثيراً ما يرحل عن تلك الجهات المحبوبة اليه فيركب زورقاً الى شاطىء البحيرة الشرقي فيزور جرجسه مثلاً او يسير في الجانب الشمالي الى قيصرية فيلبس في سفح جبل حرمون · ولقد سار مرة الى صور وصيدا المدينتين الفينيقيتين وكانتا يومئذٍ في ابان مجدهما ونموها · وغير بعيد ان يكون قد زار في قيصرية مغارة بانيوم التي كانوا يزعمون بان نهر الاردن ينبع منها والهيكل الرخامي البديع الذي بناه هيرودس الكبير قريباً من هناك اكراماً لاغسطس قيصر · ولكنه لم يكن يرتاح الى هذه البلاد وان كانت عظيمة ولذلك كان يسرع الى شاطىء جنيساره المحبوب اليه في وسط تلك الطبيعة الضاحكة التي ربي فيها

الفصل التاسع

التلامذة

في هذا المكان الذي يجوز ان يلقب قطعة من الجنة لان كل شيء فيه كان هادئاً جميلاً لعدم وصول الثورات التي قلبت وجه العالم اليه — في هذا المكان كان يعيش شعب هادىء نشيط مستقيم طروب للحياة ولذتها واخلاقه منطبقة على الطبيعة التي حوله · وكانت بحيرة طبرية مشهورة بكثرة سمكها فكان السكان يصطادون منه كثيراً وقد انشأوا في

كفر ناحوم و بيت صيدا مصائد عظيمة عادت عليهم بسعة الرزق وكثرة الخيرات . وكانت معيشة هؤلاء الصيادين الطف معيشة وابسطها وكانوا مرتبطين بعضهم ببعض برباط القربى لانهم كانوا يتزوجون بعضهم من بعض . ولم يكن قد دخل الى بلادهم شيء من آثار المدنية اليونانية والعالمية ولكن عاداتهم كانت حسنة واخلاقهم هادئة وربما كانوا يشبهون سكان جبل لبنان في هذا الزمان . ففي هذا الوسط اقام يسوع وترك وطنه الناصرة لانه لم يجد فيها الاكرام الذي كان من حقه . وفي ذلك يقول « ليس لنبي كرامة في وطنه »

وكان في كفر ناحوم بيت امتاز باكرام السيد وهو لصيادين يدعيان اندراوس وسمعان بطرس . فاقام يسوع فيه رخيّ البال مكرماً محترماً . وكان فيها بيت آخر لزبدة وكان له ولدان يعقوب و يوحنا وامرأة تُدعى صالومه كانت اشد الناس اتباعاً للسيد . ذلك ان النساء كنَّ كثيرات الاكرام ليسوع لان جماله المهيب ولطفه وحسن معاملته لهنَّ واحترامه في الكلام معهنَّ كانت تجتذب القلوب اليه . ولم يكن الانفصال تاماً بين الرجال والنساء في القرى اليهودية كما كان في المدن ولذلك انضمَّ الى تلامذة المسيح ثلاثة من النساء فازداد بهنَّ نادي يسوع جمالاً ورواء . وكان فيهنَّ واحدة من مجدل وهي مريم المجدلية وكانت من عصبيات المزاج الشديدات التأثر والانفعال فسكَّن يسوع بنظره الهادئ اللطيف وجماله الطاهر نفس هذه المرأة المضطربة . ثم انضم الى تلامذته متى وفيليبوس وتثنائيل وتوما وغيرهم وفي جملتهم يهوذا الخريوطي نسبة الى خريوط وهي قرية في اقصى جنوبي بلاد اليهودية على مسيرة يوم من حبرون . وكان جميع تلامذته من اهالي بلاد الجليل الا يهوذا هذا

واما نسبة التلامذة بعضهم الى بعض فقد كانت واحدة . فان السواء كان عاماً في هذه الهيئة الناشئة . وكل واحد يجب عليه ان يلقب الآخر « اخاه » اما لقب « ربي » الذي معناه معلم ولقب « ابي » فقد كانا محرمين بينهم لانه ما من معلم غير يسوع وما من اب غير الله . والكبير فيهم يجب ان يكون خادمهم . ومع ذلك فقد امتاز منهم بطرس باهميته من حيث علاقته بيسوع . فان السيد كان يقيم في منزله وكان يعظ في سفينته فكان منزله وسفينته مركزاً للوعظ والتعليم . وكان بطرس رجلاً مستقيماً مخلصاً بسيطاً يندفع لاول اشارة من السيد . فكانت هذه الاخلاق تعجبه كثيراً . فالظاهر ان صالومه امرأة زبدة حسدت يوماً بطرس على مقامه فانفردت بالسيد وسألته ان يجعل

ولديها في المنزلة الاولى بعده · فاجابها يسوع ان الذي يروم الاستعلاء يسقط وان ملكوت الله للمتواضعين · وبذلك صرفها عن طلبها · ولما درى باقي التلامذة بما سالته صالومه استاؤوا جداً منها

فما مرَّ يتضح ان اكثر تلامذة المسيح كانوا صيادي سمك · ولكن لم يكن لصيد السمك في الجليل في ذلك الزمان الشان الحقير الذي له في هذه الايام · ولم يكن ليسوع تلامذة من العشارين غير لاوي وربما الرسول متى ايضاً · وكانت وظيفة العشارين اي جباة الضرائب مكروهة الى اليهود في ذلك الزمان اشد كراهة لما تقدم من مقتهم الضرائب والاعشار لانها دليل على عبودية الانسان للانسان · وكان احدهم اذا رضي وصار عشاراً قطع اهله ورفاقه كل علاقة لهم به ومنعوا الناس من معاملته والذهاب الى صندوقه لاستبدال نقودهم منه كما ورد في المشنا · وكانوا يعدّون العشارين ومستخدمي الجمرك وما اشبههم من جملة اللصوص وقطاع الطرق · واذا توفي واحد منهم واوصى كانت وصيته فاسدة · وكانت الطريق الرومانية الكبرى الموصلة بين عكا ودمشق الشام والتي هي من اقدم الطرق في العالم تمتد في الجليل بجانب بحيرة طبرية كما روى الانجيلي متى (الاصحاح الرابع عدد ١٣ — ١٥) وكانوا يسمونها في زمن الحروب الصليبية « طريق ماريس » · فكان يمرُّ في هذه الطريق كثيرون من مستخدمي الجمرك والعشارين · وكان في جملتهم عشار يُدعى لاوي فاتى يسوع ودعاه الى مائدته فاجاب يسوع وذهب الى مائدته مع تلامذته · فكان لذلك تأثير عظيم في نفوس كهان اليهود كما جاء في التلمود · اما يسوع فلم يبال بهم لانه اراد بذلك ان يدلهم على ان الله لا يطلب من البشر سوى طهارة القلب ونقاء الباطن

الفصل العاشر

التعاليم المسيحية

تلك كانت الحلقة التي كانت تحيط بيسوع على شواطئ بحيرة طبرية · وكانت جودة الهواء في تلك الجهات تجعل حياة هؤلاء البسطاء الودعاء عيداً دائماً · فانهم كانوا في النهار يركبون بحيرة تهزهم امواجها كما تهز الام سرير اولادها وفي المساء يجلسون او يستلقون على شاطئها يتحدثون ويتباحثون · فكانت معيشتهم كلها في الخلاء والهواء · وكان التلامذة يقطفون في ذلك الاوان زهرة تعاليم السيد اول نبتها ويتمتعون بارجها · وكان اذا بدا في نفس احدهم شك او ريب ازال المعلم العظيم ذلك الشك بنظرة واحدة لطيفة

او بسمة واحدة . وكل غمامة كانت تمر في جو السماء وكل حبة كانت تنبت امامهم في البرية وكل سنبلة كانت تنضج وتصفر في الحقول كانت دليلاً على تقدم العالم ودنو ملكوت الله . وكانوا في هذه النزهات الجميلة يسمعون من فم المعلم العظيم هذه التعزية الكبرى التي يزول العالم ولا تزول

« طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السماوات

« طوبى للحزانى لانهم يتعزون

« طوبى للودعاء لانهم يرثون الارض

« طوبى للجياع والعطاش الى البر لانهم يشبعون

« طوبى للرحماء لانهم يُرحمون

« طوبى للانقياء القلب لانهم يعاينون الله

« طوبى لصانعي السلام لانهم ابناء الله يُدعون

« طوبى للمطرودين من اجل البر لان لهم ملكوت السماوات

وكان تعليمه حلوًا يأخذ بمجامع القلوب وشبيهاً في ريحه بريح الازهار في الحقول . وكان يسوع يحب هذه الازهار حباً شديداً ويتمثل بها . وهو اول من ابتدع الوعظ بالامثال اللطيفة الجميلة . نعم انه في الكتب البوذية كثيرًا من الامثال تشبه الامثال المسيحية ولكن لم يقم دليل قط على انه كان للديانة البوذية تأثير على الديانة المسيحية او كان لها علاقة بها

وكانت الطبيعة في الجليل بسيطة والهواء معتدلاً والعمل في زراعة الارض لا يأتي باجرة تساوي التعب فيها فلم تكن تمس الحاجة كثيرًا الى الطعام الكثير واللبس الداقّ والعمل بل كانت القناعة والاكتفاء شعار السكان كلهم . فكان ذلك يوحي الى المعلم العظيم آيات لم يخط مثلها قلم على قرطاس فكان يقول

« لا تكنزوا لكم كنوزاً على الارض حيث يفسد السوس والصداء وحيث ينقب السارقون ويسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صداء وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون . لانه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك ايضاً . لا يقدر احد ان يخدم سيدين لانه اما ان يبغض الواحد ويحب الآخر او يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لا تقدرون ان تخدموا الله وممون (١) . لذلك اقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما

(١) ممون اله المال والكنوز المدفونة عند الفينيقيين والسوريين القدماء

تاكلون وبما تشربون ولا لاجسادكم بما تلبسون اليست الحيوة افضل من الطعام والجسد افضل من اللباس . انظروا الى طيور السماء انها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع الى مخازن وابوكم السماوي يقوتها . الستم انتم بالحري افضل منها . ومن منكم اذا اهتم يقدر ان يزيد على قامته ذراعاً واحدة . ولماذا تهتمون باللباس تاملوا زنابق الحقل كيف تنمو لا تتعب ولا تغزل . ولكن اقول لكم انه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها . فان كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويُطرح غداً في التنور يُلبسه الله هكذا افليس بالحري جداً يُلبسكم انتم يا قليلي الايمان . فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل او ماذا نشرب او ماذا نلبس . فان هذه كلها تطلبها الامم لان اباكم السماوي يعلم انكم تحتاجون الى هذه كلها . لكن اطلبوا اولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تُزاد لكم . فلا تهتموا للغد لان الغد يهتم بما لنفسه يكفي اليوم شره »

فهذا التعليم وهذه المبادئ كان لها تاثير عظيم على الجمعية المسيحية الاولى . فان التلامذة صاروا يعتبرون الاهتمام بالحياة والمعيشة شراً يخنق في نفس الانسان كل خير . وحسبهم ان يسالوا الله في كل يوم خبز الغد . اما كنز الكنوز وتوفير الاموال فكان امراً قريباً من العبث . ومما كان يقوّي هذه المبادئ انتشار اللصوصية في تلك البلاد وكثرة السلبة وقطاع الطرق كما رواه يوسيفوس . فان الغني لم يكن على ثقة من غناه ولذلك كان في خوف دائم من فقده . واما الفقير فانه كان مستريح البال لانه لا يخشى من اللصوص على شيء يملكه اذ لم يكن يملك شيئاً . وبناء عليه كان الفقير كانهُ اغنى من الغني . واما في هيئتنا الاجتماعية الحاضرة فان حالة الفقير لا تُحتمل . فان الغني عندنا على ثقة من ماله والخيرات والازهار والافياء لاصحاب الاملاك دون سواهم . وذلك بخلاف الشرق فان الازهار والافياء والخيرات شائعة فيه للكل ولا يملك صاحب الملك من الارض الا شيئاً محدوداً . واما الطبيعة فانها ملك الجميع

على ان المسيحية لم تكن في ذلك الامر الا مقلدة لطائفة الايسينيين اليهودية وهذه الطائفة كانت مقلدة لطائفة الفيثاغوريين اليونانية . وكان البخل هو الرذيلة الكبرى في اعتبار الطائفة المسيحية الاولى . والمراد بالبخل هنا اقتناء الملك والمال . ولذلك كان اول ما يجب على الذين يرغبون في اتباع السيد والانضمام الى تلامذته لينالوا ملكوت الله ان يتنازلوا عن املاكهم واموالهم اما هبة للفقراء والمساكين او الى الجمعية المسيحية . واذا لم يصنعوا ذلك لم يكن لهم ان يسموا انفسهم تلامذة المسيح . فكان ذلك بمثابة « اشتراك في الملك والمال » . ولكن لم يلبث ان ظهر ضرر هذه الطريقة . فان اجتماع الاموال لدى الطائفة

المسيحية اوجب تعيين امين لحفظها فاختار والذلك يهوذا الحربوطي ولكنه لم يلبث ان اتهم بسرقة المال المشترك

واشد ما يكون ظهور رغبة يسوع في محق الغنى في مثل الغني ولعازر الفقير الذي كان يا كل من فتات مائدته . فان الغني حمل الى النار ولعازر الى السماء . ولماذا ذلك ؟ لان الاول غني تمتع بخيرات الارض ولم يهبها الى الفقراء . اما قولهم ان المقصود بهذا المثل هو الغني الشرير فقط فتأويل لا مسوغ له وهو من الموضوعات بعد يسوع . لا سيما وانه قد قال ايضاً : ايسر للجمل ان يدخل في ثقب ابرة من ان يدخل الغني ملكوت السماوات

على انه اذا كانت هذه التعاليم ملائمة لحالة تلك البلاد يومئذٍ والهيئة الاجتماعية اذ ذاك فانها لم تكن ملائمة لحالة الاجتماعية في كل مكان . وقد جاء وقت رأت فيه المسيحية نفسها مضطرة الى قبول الاغنياء في حضنها . ولكن حسبها فخراً انها كانت في اول امرها مملكة الفقراء . وقد كان لقب فقير شرفاً لتلامذتها وكانوا يتلقبون به دون سواه . وقد اصبحت الشحاذة بذلك فضيلة وصناعة مقدسة . ولا يزال شيء من هذه الحالة في الديانة المسيحية الى هذه الايام . وقد كان تأثير هذا الامر عظيماً جداً ولا سيما في نفوس الطبقات السفلى الرازحة تحت احمال الحياة . فان الانجيل كان لهذه الطبقات بمثابة ثلمة في سقف سجنها تشم منه ريح النسيم وتنظر وجه السماء . فكان لها اجمل تعزية واعظم تسلية . ولا شبهة في ان هذا الامر لا ينطبق على حالة الاجتماع ولا يوافق قواعد الاقتصاد السياسي ولكن رفع ثوب الفقير الى هذه الدرجة من السمو وجعل الفقر رمزاً الى المحبة والاخلاص امر جدير بكل اعتبار . فان الانسانية ترغب في ان تعلم انها لم تستوف حقها بقبضها اجرتها بل لها هنالك حق آخر . فان ذلك مما يساعدها على حمل اعبائها . واعظم ما تخدم به تعليمها انها لا تحيى بالخبز فقط بل هنالك شيء سواه

الفصل الحادي عشر

النساء والاولاد والشعب

وكان يسوع محباً للشعب لانه علم ان ملكوته لا يسود الا به فكان يؤثر معاشرة الضعفاء والفقراء والعشارين والمنبوذين على معاشرة السراة والاكابر . وكان يطوف انحاء الجليل راكباً على بغلة جرياً على عادة الشرقيين الذين يتخذون للسفر بغالاً ذات عيون سوداء حولها اهداب طويلة تجعل لها منظراً لطيفاً جداً . وكان تلامذته يفرشون ثيابهم تارةً

في طريقه وتارة على ظهر البغلة . ومتى وصلوا الى احدى القرى ونزلوا في بيت صار ذلك البيت مباركاً واجتمع فيه كل اهل القرية لان بيوت الضيوف في الشرق مجتمع لجميع الناس . وكان اكثر الناس اجتماعاً عليه النساء والاولاد . وكان يسوع يحب الاولاد حباً شديداً . واتفق ان تلامذته ارادوا ذات يوم ان يبعدوهم عنه فراراً من ضوضائهم فقال لهم يسوع كلمته المشهورة « دعوا الاولاد يأتون اليَّ لان لمثل هؤلاء ملكوت السماوات » . وقد حدث في ذات يوم خلاف بين التلامذة بشأن التقدم والرتبة فاخذ يسوع ولداً واقامه في وسطهم ثم قال لهم ان لم ترجعوا وتصيروا مثل هذا الولد (في البساطة والطهارة والتواضع والحب) فلن تدخلوا ملكوت السماوات . وكان الاولاد يزدحمون من كل جانب و يهتفون له « اوصنا لابن داود » فكان يروقه هتافهم . و بذلك كان بدء ظهوره عبارة عن حركة يقوم بها النساء والاولاد . ولا يخفى ان كل قوى النفس الانسانية وكل ما في القلب البشري من طهارة وحب وبساطة مجموع في هذين الفريقين

فكأنَّ ملك السيد يومئذ كان ملك الاولاد وكأنه رام الاستيلاء بهم على العالم اجمع . فما كان اجمل ذلك الزمان العظيم . ما اجمل ان تنسى الانسانية ولو لحظة واحدة تلك القيود المادية التي تقيدها بهذه الارض وتنزع الى العلى . وما اسعد اولئك الذين شهدوا باعينهم هذا المشهد الالهي واشتركوا في تلك الآمال العظيمة . ولكن اسعد منهم كلهم ذلك الذي ينفض عنه غبار كل وهم وشر ورذيلة عملاً بقول يسوع و يعيد في نفسه بواسطة نقاء باطنه وصفاء ضميره وقوة ارادته تلك الصورة الالهية التي هي ملكوت الله

الفصل الثاني عشر

مقتل يوحنا المعمدان

ولما انتشرت شهرة المعلم العظيم هذا الانتشار بلغت الى يوحنا المعمدان في سجنه فبعث اليه اثنين من تلامذته يسألانه « هل انت الآتي ام ننتظر آخر » فلما قدم التلميذان عليه وجدا حوله ضوضاء الاحتفال والافراح والمآدب فعجبا من ذلك كما نقل الانجيلي في (الاصحاح التاسع) لان معلمهما يوحنا كان لا يأكل ولا يشرب الا ما كان ضرورياً لقيام الجسم . ولسنا نعلم الجواب الذي جاوب به يسوع تلميذي يوحنا . وكذلك لا نعلم اذا كانا قد وجدا يوحنا في قيد الحياة حين عودتهما بالجواب او ان انتيباس كان قد امر بقتله . وقصة مقتل يوحنا مشهورة فان هذا الرجل الصارم كان في محادثاته مع انتيباس يقول له دائماً انهُ قد اساء

الى الشريعة اليهودية بزواجه من هيروديا · فزاد ذلك في سخط هيروديا عليه · وكان لهيروديا ابنة من زوجها الاول تُدعى صالومه · ففي يوم تذكار مولد انتيباس اقام هذا الملك احتفالاً في قلعة ماكرو في القصر الجميل الذي بناه هيرودس الكبير فيها كما روى يوسيفوس · فقامت صالومه بايعاز من امها و رقصت في الحفلة احدى الرقصات المشهورة في الشرق بكونها غير ادبية · فطرب انتيباس اشد طرب من هذه الرقصة وقال لها اطلبي فانني اعطيكِ ما تشائين · فطلبت رأس يوحنا المعمدان · فاستاء انتيباس من هذا الطلب ولكنه كره ان يردّها فامر احد حراسه فذهب وجاء برأس يوحنا على طبق

فكانَ هذا الشيخ الجليل اول شهيد من شهداء الديانة المسيحية · وكانت جثته اول جثة وُضعت في الطريق الدموية التي سلكها تلامذة السيد لتفتحها لهم · وذلك مما جعل يوحنا همزة وصل بين العالم القديم والعالم الجديد

وقد سخط الشعب اليهودي من صنع انتيباس وغزا الحارث امير العرب الذي كانت ابنته زوجة انتيباس قبل اقترانه بهيروديا مملكة هذا الملك للانتقام لابنته واسترداد قلعة ماكرو منه فانكسر انتيباس في هذه الحرب وقد عدّ الشعب اليهودي هذا الانكسار عقاباً له على ما صنعه بيوحنا المعمدان

واما تلامذة يوحنا فانهم اخذوا جثته ودفنوها وقد عاش مذهبه بعده فلم يمت بموته ولكنه لم يعش وقتاً طويلاً بل انطفأ شيئاً فشيئاً بعد انتشار الديانة المسيحية لان المسيحيين اصبحوا يعتبرون انصاره خارجين عن المسيحية · وكان اليهود ينكرون مجيء «مسيا» استناداً الى ان ايليا لم يأتِ كما تنبأ دانيال فكان المسيحيون يجيبون بان يوحنا هو ايليا

الفصل الثالث عشر

يسوع في اورشليم · مباني اورشليم القديمة · الهيكل الكبير ووصفه · اكليروس اليهود والشعب · تعاليمه في الهيكل · رأي حكيم

وكان يسوع يذهب الى اورشليم مع حجاج اليهود في كل عام تقريباً · واول مرة اطال الاقامة فيها كانت على ما يظهر في عام ٣١ بعد ميلاده اي بعد مقتل يوحنا المعمدان · وكان يسوع يحجّ مع حجاج اليهود لانه كره جرح عواطفهم والازدراء بالحج فضلاً عن معرفته ان الواجب للقيام بعمل عظيم الخروج من بلاد الجليل والاقامة في اورشليم مركز اليهود لمهاجمة التقاليد اليهودية فيها

وكانت اورشليم في ذلك الزمان كما هي اليوم اي مدينة الجدال والدعوى والخصام والبغض والامور الصبيانية . وكان الفريسيون متسلطين على عقول اهلها . وكان اهتمامهم مصروفاً الى درس الشريعة اليهودية والمجادلة فيها باسلوب جاف خشن لا يغذي النفس ولا يهذّب العقل . وكان الواحد منهم يقضي السنوات في درس القواعد والاصول القديمة حتى اذا وعى منها شيئاً انتفخ كبرياء وعظمةً بدعوى العلم . فكان الجليليون الذين يحجون من الجليل اليها لا يجدون فيها شيئاً مما كان في بلادهم من الهدوء الطبيعي والجمال ونقاء العيش. ومما كان يزيد ألمهم ان يهود اورشليم كانوا يعتبرون يهود الجليل دونهم . وكان قولهم « الجليلي الاحمق » مضرباً للمثل عندهم لاعتقادهم الحمق والبلاهة في الجليليين . وكان من امثالهم ايضاً « هل يقوم من الناصرة رجل صالح » . وبالجملة فقد كانت الجليل محتقرة في نظرهم ولم يكن لها من شهادة في كتبهم غير قول اشعيا الذي اختلف مفسروهم في تفسيره وهو « ارض زبولون وارض نفتاليم طريق البحر عبر الاردن جليل الامم »

ومما زاد ألم يسوع وتلامذته الجليليين في اورشليم جفاف الطبيعة حول هذه المدينة . فان ارضها كثيرة الحجارة جافة واوديتها لا ماء فيها . ومن يسرح طرفه فيها في جهات البحر الميت واراضيه القفراء يشعر شعوراً غريباً . فان هذا المنظر لو كان في مكان آخر لكان كريهاً منبوذاً ولكنه حول اورشليم جدير بالاعتبار والتامل لما يوحي الى النفس من الافكار العديدة . وكان منظر اورشليم في زمن يسوع كمنظرها اليوم تقريباً . فانه لم يكن فيها من اثر قديم لان اليهود اقاموا حتى المكابيين (الاشمونيين) ولا شيء عندهم من الفنون الجميلة . ولكن لما قام ملكهم وكبير كهانهم هركان في عام ٧٩ قبل الميلاد اخذ يزين المدينة ويجمّلها . ثم جاء هيرودس الكبير فجعلها مدينة شائقة . وقد روى يوسيفوس ان الابنية الجميلة التي اقامها هيرودس الكبير فيها كانت شبيهة بالابنية العظيمة التي تخلفت عن العصور القديمة . وقد كان في ضواحي اورشليم في ذلك الزمن كثير من المدافن الجميلة مبنية على القواعد القديمة . اما يسوع فلم يكن يعبأ بهذه الآثار الجميلة لان عقله كان مشغولاً بالامور الروحية دون سواها ولم يكن له ميل الا الى ما له علاقة بالقلب

اما الهيكل العظيم فانه كان جديداً في ايام يسوع . فان هيرودس الكبير بدأ باعادة بنائه في عام ٢٠—٢١ قبل الميلاد . وقد اتم بناء صحن الهيكل نفسه في ١٨ شهراً كما روى يوسيفوس واقتضى بناء ابوابه واروقته ثماني سنوات . اما ملحقاته فلم يتم بناؤها الا قبل سقوط اورشليم في ايدي الرومانيين بمدة يسيرة . وربما كان البناؤون حين زيارة يسوع

لما يبنون فيها . واذا كان قد شاهدهم يبنونها فلا ريب ان ذلك اثار في نفسه عاطفة الاستياء لاعتباره تجديد بناء الهيكل دليلاً على ثقة اليهود بدوام تقاليدهم . وفي ذلك اهانة لتعاليمه

اما منظر الهيكل فقد كان في غاية الفخامة . واذا دخلت الى الحرم وجامع عمر في اورشليم وتاملت في فخامة هذين المكانين تجلى لك جمال الهيكل اليهودي القديم لانحائهم منه . اما المسيو دي نوكوه الذي ساح في فلسطين وكتب كتابه « هيكل اورشلم » في سنة ١٨٦٤ فانه يشك في ان الحرم والجامع كانا من اجزاء الهيكل

وكانت اروقة الهيكل وساحاته مجتمعاً لجمهور غفير من اليهود وكانت بمثابة محكمة لهم ومدرسة وساحة عمومية . فانهم كانوا يتباحثون فيها و يتجادلون و يتناظرون . وكان الرومانيون في ذلك الزمن يحترمون عادات اليهود فلم يكونوا يدخلون الهيكل . وقد نُقشت في اماكن مخصوصة في الهيكل كتابات باللغة اليونانية واللاتينية لمنع الذين ليسوا يهود من اجتياز حدود معلومة في ساحاته . وكان ضبط شؤون الهيكل الداخلية منوطاً برجال من اليهود دون الشرطة وكانت مفاتيح الابواب في يد ضابط منهم رعايه فتحها واقفالها ومنع الناس من الدخول الى الساحة الداخلية اذا كان في ايديهم عصي او كانت احذيتهم مغبرة او لاختصار الطريق في مرورهم من جانب الى جانب كما ورد في المشنا . ومما كانوا يهتمون به اشد اهتمام ايضاً منع الناس ولا سيما النساء من الدخول اذا لم يكونوا في حالة الطهارة التامة

ففي هذا المكان الواسع العظيم كان يصرف يسوع اوقاته مدة اقامته في اورشليم في ايام الحج . وكان اليهود يتهافتون في المواسم على هذا الهيكل تهافت الجراد و يقيمون في غرف متفرقة تسع كل واحدة منها عشرة اشخاص منهم او عشرين كما روى يوسيفوس . فكان يسوع يدخل بينهم مع رفاقه التلامذة . وكانت اصول العبادة في الهيكل تستوجب بيعاً وشراء فهناك حيوانات تُعرض للبيع لتقرب ذبيحة وهنالك موائد صيارفة لاستبدال النقود وذلك مما كان يجعل للهيكل منظر سوق عمومية . فهذه الشؤون المادية كانت تؤثر في نفس يسوع تاثيراً مؤلماً لانها عارية عن ديانة القلب والضمير التي جاء لينادي بها . وقد غضب يوماً غضباً شديداً مما كان يجري في الهيكل من البيع والشراء كما جاء في الانجيل فتناول سوطاً وطرد به باعة الحيوانات وقلب موائد الصيارفة وهو يصيح ان بيت الصلاة لا يكون بيتاً للصوص . و بالجملة فانه كان قليل الميل للهيكل وقد ورث تلامذته هذا الميل . ولم يعبأ بالهيكل احد من المسيحيين الا الذين كانوا مع اعتناقهم الدين المسيحي يقيمون

متمسكين بالشريعة اليهودية . ولما قام الامبراطور قسطنطين والاباطرة المسيحيون الاولون تركوا في الهيكل ما بناه فيه ادريانوس من المباني الوثنية . ولم يهتم بالهيكل بعد سقوط اورشليم غير الاباطرة الذين كانوا اعداء الديانة المسيحية كالامبراطور جوليانوس . ولما فُتحت اورشليم للعرب كان المسيحيون قد دنسوا الهيكل من بغضهم لليهود فامر الامام عمر باصلاحه واعادة شرفه اليه . كأنه كتب لهذا المكان ان يبقى ضد الديانة المسيحية

اما اكليروس اليهود فكان يومئذٍ آخذاً في السقوط بقدر ارتفاع افكار الشعب الاسرائيلي . اي كما كان الشعب يتهذب وتنضج افكاره كان الاكليروس ينحطّ في نظره وفي الحقيقة . ومما زاد انحطاطه اعتداء هيرودس الكبير عليه . فان هذا الملك العظيم احب فتاة تُدعى مريم ابنة سمعان بن بويطوس من سكان الاسكندرية ورام الاقتران بها في عام ٢٨ قبل الميلاد . فرغبة في رفع شان عائلتها جاه بابيها وجعله رئيساً لكهنة اليهود . وبذلك صارت رئاسة الكهنة بمثابة وظيفة تابعة للحكومة . وكانت رئاسة الكهنة قبل ذلك للصدوقيين فلما وليها بويطوس امتزج البويطوسيون بالصدوقيين وتالف من الفريقين اكليروس شرهُ نهم لا يهتم بالامور الدينية الا في الظاهر وكل قواه مصروفة الى المطامع الشخصية والمطامع الذاتية . وقد بلغ من عدم احترام الشؤون الدينية عندهم ان صاروا يضحكون من الشعب في سرّهم لتهافته على ما كانوا يدعونه اليه ويهزأون بالحجاج الذين كانوا يفدون من اقاصي البلاد لزيارة الاماكن التي كان زمامها في ايديهم . وكانوا يعيشون من الهيكل وهم يرون بطلان الشؤون التي كانت تدر الرزق عليهم . وكان احب الامور اليهم ان يتركهم الناس وشانهم يغشون من يغشون ويبتزّون ما يبتزّون . ولذلك كانوا يكرهون سماع كلمة الاصلاح والقداسة . ولم يكن من عدوٍ لهم غير الذي يقوم لتنبيه الشعب فان ذلك يكدر صفوهم ويحول بينهم وبين رزقهم ومطامعهم

فكل هذه الامور كانت تثير نفس يسوع حتى الغضب لكنه كان في بدء الامر يكتم ما يقوم في نفسه ولا يطلع عليه احداً غير اخصائه . على انه مع ذلك اخذ يتكلم ويعلم في جملة المتكلمين والمعلمين في الهيكل . فلم يكتسب في بدء الامر غير صداقة عائلة في بيت عنيا ولم يتعرّف بغير مريم ام مرقص التي صار بيتها بعد بضع سنوات مجتمعاً للتلامذة ورجل يُدعى نيقوديموس وهو من الفريسيين الاغنياء . وكان هذا الرجل كريماً شريف الاخلاق فمال ليسوع ولكنه لم يكن يزوره الا في الظلام فراراً من تعنيف الفريسيين . ولم يدخل

هذا الرجل يومئذ في الديانة المسيحية لانه خشي الدخول في حركة ثورية جديدة لم يكن قد دخل فيها احد من اكابر اليهود

اما اكابر علماء اليهود في ذلك الزمان فلم يلقَ يسوع احداً منهم لان الفيلسوفين هلل وشماي كانا قد فارقا الحياة ولم يكن من رجل كبير في الهيئة اليهودية يومئذٍ غير العالم «غمالائيل» حفيد هلل . وكان هذا الرجل ذا عقل مستقل حرّ محب للتساهل العالم بشؤون الحياة اليهودية وغير اليهودية . وكان من علامات تساهله انه كان يمشي في الشوارع مفتوح العينين وهو ينظر الى النساء حتى الوثنيات خلافاً للفريسيين الذين كانوا يمشون في الشوارع مغمضي العيون او ايديهم على عيونهم لئلا يبصروا النساء . وقد سامحه ابناء جنسه على هذا التساهل كما سامحوه على معرفته اللغة اليونانية لانه كان يخالط رجال البلاط . وبعد صلب يسوع وشروع تلامذته في التعليم في اورشليم رام الفريسيون سجنهم فقال فيهم غمالائيل قولاً جميلاً . وقد جاء في اعمال الرسل بهذا الشأن ما يلي

« فقام في المجمع رجل فريسي اسمه غمالائيل معلم للناموس مكرَّم عند جميع الشعب فامر ان يخرج الرسل قليلاً ثم قال لهم : ايها الرجال الاسرائيليون احترزوا لانفسكم من هؤلاء الناس . فما انتم مزمعون ان تفعلوا . لانه قبل هذه الايام قام ثوداس قائلاً عن نفسه انه شيء . الذي التصق به عدد من الرجال نحو اربع مئة . الذي قتل وجميع الذين انقادوا اليه تبددوا وصاروا لا شيء . بعد هذا قام يهوذا الجليلي في ايام الاكتتاب وازاغ وراءه شعباً غفيراً فذاك ايضاً هلك وجميع الذين انقادوا اليه تشتتوا . والآن اقول لكم تنحوا عن هؤلاء الناس واتركوهم . لانه ان كان هذا الرأي او هذا العمل من الناس فسوف ينتقض وان كان من الله فلا تقدرون ان تنقضوه . لئلا توجدوا محاربين لله ايضاً »

فما اجدر الاكليروس المسيحي ان يقول اليوم في الذين لا يرون رأيه ما كان يقوله اعداء الديانة المسيحية فيها

الفصل الرابع عشر

ديانة القلب وكراهة التقاليد · حفظ يوم السبت · معاشرة الوثنيين والسامريين · مثل السامري · يسوع والسامرية والديانة الابدية

ومنذ هذا الحين صار يسوع يرى وجوب افناء التقاليد اليهودية لا الاتفاق مع رجالها. فانه كان في هذه التقاليد ان الهيكل لا يدخله احد غير اليهود اما يسوع فاستغنى عنه · وكان فيها ان الشريعة اليهودية لم تسنّ الا لابناء ابرهيم اما يسوع فكان يقول ان كل رجل يقبلني ويحبني يصير ابناً لابرهيم · وقد قال يوماً ان الله قادر ان يجعل من هذه الحجارة ابناء لابرهيم · فهو بهذا الكلام كان يقاوم كبرياء الانسان وفخاره بحسبه ونسبه ويدعو كل البشر الى دين مبني على مكارم الاخلاق لا على الحسب والنسب · لقد كان بهذا الكلام ينادي بحقوق الانسان ويعلن للبشر ديانة البشر لا ديانة اليهود خلاص البشر لا خلاص اليهود · فما ابعد هذا عما تقدمه · لقد وُضعت به اسس ديانة القلب والاخاء · لقد صار موسى نسياً منسياً · وقُضيَ على الهيكل بخراب لا مردّ له

فبناء على ذلك كان يسوع يحتقر كل شيء لم يكن له علاقة بايمان القلب · وقد كان عدواً لدوداً للظاهرات المادية التي يقوم بها بعض المتعبدين · وكان يفضل الصفح عن اهانة على الذبيحة · وكل شريعته محصورة في هذه الكلمات : محبة الله والاحسان والصفح · وكان لا يعتبر الصلاة الا اذا كانت خارجة من القلب · وقد كان بعض من صغار العقول يظنون انهم يكرمونه بمناداته « ربي ربي » اي يامعلم يامعلم فكان السيد يقول « ان هذه الشعب يكرمني بشفتيه ولكن قلبه بعيد عني » او « لماذا تدعونني يارب يارب وانتم لا تفعلون ما اقوله »

وكان حفظ يوم السبت (اي ترك كل عمل في هذا اليوم) القاعدة الكبرى التي بُنيت عليها تقاليد الفريسيين · وكان الشعب يعتقد يومئذٍ ان الطبيعة نفسها (تسبت) اي تقف عن كل عمل في يوم السبت · ومن اوهامهم في هذا الصدد ايضاً ان بعض الينابيع تقف عن الجري في يوم السبت · وقد نقل المؤرخ يوسيفوس هذه الرواية · وسبب هذا الزعم ان تلك الينابيع كانت تجري وتقف في مواعيد جرياً مع العوامل الطبيعية وهي تُعرف اليوم « بالينابيع المتقطعة » اي التي تجري حيناً وتنقطع حيناً

اما يسوع فانه لنكاية الفريسيين واظهار اوهامهم كان لا يعبأ بيوم السبت · وكان يهزأ بما يأتونه من غسل واغتسال · فيقول لهم مثلاً · « هل تقدرون ان تغسلوا ارواحكم

ايضاً . ليس ما يدخل الفم ينجس الانسان بل ان الذي يخرج من الفم هو الذي ينجس الانسان او « ايها العميان الذين يقودون عميان احذروا السقوط في الحفرة » او « يا اولاد الافاعي كيف تقدرون ان تتكلموا بالصالحات وانتم اشرار . فانه من فضلة القلب يتكلم الفم »

وكما ان يسوع لم يكن يعبأ بحفظ السبت اظهاراً لاوهام الفريسيين فقد كان يجالس الوثنيين ويقبلهم ويثق بهم اكثر من ثقته باليهود انفسهم مع ان الفريسيين كانوا يبتعدون عنهم . وكانوا اذا لاموه لانه يعاشر الوثنيين اجابهم « اذا كان صاحب كرم مستاء من الذين استاجروا كرمه فماذا يصنع . لا ريب انه ياتي ويعطي الكرم الى آخرين » . وكان ايضاً يضرب الامثال بالسيد الذي دعا الناس الى العرس فلم يجيبوه فارسل عبيده يدعون الى عرسه الناس من قارعة الطريق . ومن اقواله ايضاً في هذا الشان « اقول لكم ان كثيرين سياتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابرهيم واسحق ويعقوب في ملكوت السماوات . واما بنو الملكوت (يعني ابناء اسرائيل) فيطرحون الى الظلمة الخارجية »

ومما لا شبهة فيه انه كان بين تلامذته كثيرون من الذين كان اليهود يسمونهم « هيلانيين » . وقد روى ذلك يوسيفوس . وكان اليهود يريدون بكلمة « هيلانيين » الوثنيين او اليهود الذين تعلموا اللغة اليونانية واقاموا بين اليونانيين او اليونانيين الذين اعتنقوا الشريعة الاسرائيلية كما روى الانجيلي يوحنا (الاصحاح ١٢ العدد ٢٠) وربما كان كثيرون من تلامذة المسيح من العنصر الاخير

وكان يسوع يعامل السامريين كما كان يعامل اليونانيين . وقد كان اليهود يحتقرون السامريين لان هؤلاء كانوا لا يزالون يعتقدون بمذهب (غار يزيم) الذي كان مخالفاً لمذهب اورشليم . وكان اليهود يعتبرون السامريين كالوثنيين ويبغضونهم فوق بغضهم لهؤلاء . وكانت السامرة محصورة بين ولايتي اليهودية والجليل كانها شاءت لتكون مضغوطة بينهما . اما يسوع فاحياناً كان يوصي تلامذته ان لا يذهبوا الى السامرة لان السامريين كانوا لا يحسنون مقابلته لظنهم انه مثل باقي اليهود الذين كانوا يسيئون اليهم واحياناً كان يمرّ هو بنفسه في بلادهم ويحادث بعضهم وقد نشأ له عدة تلامذة منهم (يوحنا ص ٤ ع ٣٩) ومن ابلغ الامثال التي ضربها مَثل في السامريين عن الرجل الذي عرّتهُ اللصوص وجرحته على طريق اريحا . فقد مرّ به كاهن فرآه وذهب في سبيله ثم مرّ لاوي فرآه وذهب في

سبيله ثم جاء سامري فبادر اليه وضمد جرحه واركبه على دابته الى الفندق . وبذلك كان السامري المحتقر المستهزأ به افضل من الكاهن واللاوي . وعلى هذا القياس يكون الاحسان والرحمة والرفق قاعدة الاخاء بين البشر لا المذهب الديني

وكأن هذه المبادىء كانت مالئة نفس يسوع حين عودته من الجليل الى اورشليم بعد المدة الطويلة التي صرفها فيها مع تلامذته . وكانت الطريق بين اورشليم والجليل تمتد على بُعد نصف ساعة من شكيم (نابلس اليوم) . وكان حجاج اليهود يجتنبونها في عودتهم الى الجليل لانهم كانوا يكرهون مخالطة السامريين ومؤاكلتهم . ومن امثالهم في هذا الصدد « ان قطعة الخبز التي تاكلها من سامري هي قطعة من لحم خنزير » . ولذلك كان اليهود يتزودون الزاد قبل سفرهم من اورشليم للمرور في السامرة كما روى يوسيفوس . اما يسوع فانه كان لا يعبأ بهذه الاوهام . فلما عاد من اورشليم الى الجليل ووصل قريباً من نابلس تعب فجلس يستريح على بئر هناك تُدعى بئر يعقوب وسار تلامذته الى المدينة لابتياع الزاد

وكان الوقت منتصف النهار والطبيعة ساكنة هادئة في تلك الاماكن الجميلة . واذ خرجت من المدينة امرأة سامرية لتستقي من البئر . فخاطبها السيد وقال لها اعطيني ماء لاشرب . فدهشت السامرية لعلمها ان اليهود لا يطلبون شيئاً من السامريين ودخلت في الحديث معه . فاعجبها حديثه ورأت انه نبي . واذ خشيت ان يبدأ بتعنيفها لانها تدين بدين السامريين لا اليهود سبقت وقالت له « ياسيد . اباؤنا عبدوا في هذا الجبل وانتم تقولون ان العبادة في اورشليم » فاجابها يسوع « ايتها المرأة . صدقيني انه قد جاءت الساعة التي لا يُعبد فيها في هذا الجبل ولا في اورشليم بل ان العبادة الحقيقية تكون للاب في كل مكان بالحق والروح »

فهذه اوّل مرة لفظ بها يسوع الكلمة الباهرة التي وضع بها الديانة الابدية . هذه اوّل مرة سمع بها العالم ان عبادة الله غير مقيدة بكاهن او وطن او زمان او مكان . هذه هي الديانة التي تدوم الى نهاية القرون والاجيال الآتية . واذا كان في الاجرام السماوية اجرام ماهولة واهلها على علم وادب فدياناتهم لا تكون ارقى من هذه الديانة مهما بلغوا من الارتقاء الانساني . ذلك ان هذه الديانة هي ديانة الانسانية كلها . وقد كانت كلمة يسوع « عبادة الله بالحق والروح » كبرق عظيم خفق في ظلمة داجية . واذا كانت الانسانية قد تحولت عن هذه الكلمة وصارت تشتغل عنها بالاوهام والخطاء والضلال فانها ستضطر الى العودة اليها لانها اساس كل ايمان ورجاء في هذا العالم

الفصل الخامس عشر

النبوءات · العجائب · العلة المقدسة · ملكوت الله · انتهاء العالم · الفرق بين الاشتراكية والمسيحية · بعد ملايين من السنين

ولما عاد يسوع من اورشليم كان قد قطع في نفسه كل علاقة بمذهب اليهود واخذ يستعد للعمل العظيم الآتي وهو انشاء ملكوت الله · وكان قد عزم عليه وان ذهب فدى الناس وفداه · ذلك ان ملكوت الله لا ينشأ من غير مقاومة ومناهضة ولذلك كان لا بدّ من المقاومة والمناهضة · وكان روح الله فيه يملأه قوةً ونشاطاً · وكان الله في نظره اباً لكل الناس وكل واحد عليه ان يدعو الله « اباه » في صلاته · فبهذا التعليم وثب يسوع وثبة واحدة عن الحفرة القائمة بين المخلوق والخالق ووصل اليه

وكانت نبوات الانبياء عن قدوم المسيح شائعة بين اليهود ولكن المجامع لم تكن قد جمعتها في صفحة واحدة· ولذلك كان اليهود يطبقون اقوال الانبياء على الحالة في تلك الايام · اما العجائب فكان في السامرة رجل ساحر يُدعى سمعان وهو يصنع شيئاً كثيرًا منها · وقد كان صنع العجائب امرًا شائعاً في القديم · فان الفلاسفة الاسكندريين ومنهم بلوتين كانوا يزعمون انهم يصنعون العجائب · وقد روى ذلك اوتابوس و بوفيروس · وكان صنع العجائب محسوبًا امرًا اعتياديًا لان كل رجل فيه روح الله كان في اعتقادهم قادرًا على ان يصنع شيئاً منها

وكانت صناعة الطب في المشرق في ذلك الزمان كما هي اليوم (كذا) فان اليهود في فلسطين كانوا يجهلون هذه الصناعة التي وضعها اليونان منذ خمسة قرون قبل ذلك التاريخ· وكان من الشائع في كل العالم لا في عالم اليهود فقط ان الشياطين تدخل في بعض الناس وتجعلهم يعملون بالرغم عنهم اشياء يكرهونها · ومن ذلك شيطان ورد ذكره في تقاليد الفرس وهو الذي يدخل في النساء ذوات الاميال الغير المعتدلة · وقد اخذ اليهود ذلك عنهم وورد ذكر هذا الشيطان في سفر طوبيا · فهذا الشيطان صار سبباً في اثارة نفوس النساء اليهوديات وتوليد الهستيريا وغيرها من الامراض العصبية فيها · وكان قد ظهر قبل ذلك باربعة قرون ونصف كتاب لابقراط ابي الطب موضوعه « العلة المقدسة » يعني الهستيريا وفيه وصف اسباب هذه العلة وذكر دوائها · الا ان اليهود في فلسطين كانوا يجهلون صدور هذا الكتاب· وكان في اليهودية في ذلك الزمان كثيرون من المجانين وربما

كان ذلك ناشئاً عن شدة الحماس الديني الذي اشعل النفوس · وكان هؤلاء المجانين يأوون الى المغاور والخاريب في الجبال والاودية · وكان قليل من الرفق واللين كافياً لشفائهم · ولا يزال الناس في سوريا حتى عصرنا هذا يسمون « مجنوناً » كل من كان في افكاره شيء من الغرابة · وفي اصطلاحاتهم في الحديث قولهم لمن لا يعجبهم رأيه: انت مجنون

اما مدة تعليم يسوع فان الانجيلي يوحنا يجعلها سنتين او ثلاثاً · ومهما يكن من الامر فانها لا تتجاوز سبع سنوات لان بيلاطس قد عُزل قبل عيد الفصح من عام ٣٦ للميلاد · وكان يسوع يكرز باقتراب ملكوت الله · والمراد بذلك على ما في الانجيل قدوم المسيح لدينونة الناس في نهاية العالم · وطريقة ذلك ان يُقسم البشر قسمين قسم الصالحين وقسم الاشرار · اما الصالحون فيدخلون الى الاماكن المهيئة المعدّة لهم منذ ابتداء العالم وهناك يلبسون النور و يجلسون على مائدة ابرهيم · اما الاشرار فانهم يذهبون الى « جهنّم » · وجهنم هذه هي وادٍ في غربي اورشليم · وكان اليهود يوقدون النار اولاً في هذا الوادي ويحتفلون بذلك على سبيل العبادة · ثم صار الوادي مكاناً للاقذار والنجاسة

ومهما يكن من هذا الامر فان يسوع بنى ملكوت الله وهو يكرز تلك الكرازة · وهذا الملكوت الحقيقي هو ملكوت العقل الذي يجعل كل انسان ملكاً وكاهناً معاً والذي كان كحبة الخردل زُرعت في الارض فانبتت شجرة عقلية · هذا الملكوت هو : روح الله يرفرف على الارض بعد مجيئه · وخطبة السيد على الجبل · وتقوية الضعفاء بذكر الغبطة والسعادة الابدية · ومحبة الشعب · والميل الى الفقير · واعلاء شان كل ما هو حقير ومتواضع و بسيط وصحيح · وقد تمّ هذا العلم وسيدوم بعده الى الابد · وكل واحد من البشر مديون له بافضل ما في نفسه من المبادىء الشريفة

اما مسالة انتهاء العالم واقتراب هذه النهاية فمسالة صفقت لها الانسانية في فلسطين طرباً في ذلك الزمان · فانه اوّل ما قيل لها انه قد حان اجل كرتك الارضية اقتبلت هذا الخبر بابتسام كالابتسام الذي يقتبل به الاولاد الموت وصارت مسرورة بهذه النهاية سروراً ما بعده سرور · اما باقي العالم فانه كان يزداد تمسكاً بالحياة كما ازداد ايغالاً فيها ولذلك كان يوم الخلاص الذي كانت تنتظره نفوس الجليليين الطاهرة بشوق وسرور معتبراً من تلك الاجيال الحديدية التي كانت تخشن كلما طالت عليها الحياة كيوم غضب وحرمان

ولكن مع اعتقاد المسيحيين الاولين بقرب انتهاء العالم يومئذٍ كان فيهم كثيرون

يحاربون شرور العالم باسم الانجيل و يطلبون اصلاح الحالة استناداً الى مبادئه . وسيبقى مبدأ «ملكوت الله» اعظم المبادىء المحركة على طلب الاصلاح في كل مكان الى ماشاء الله.
اما الاشتراكيون الذين يطلبون اصلاح الارض اليوم فانهم يبقون عاجزين عن انفاذ اصلاحهم ما لم يلجأوا الى افكار يسوع نفسها و يعملوا بها . فانهم يطلبون بناء على مبدإ مادي غليظ امراً مستحيلاً وهو جعل جميع الناس سعداء ولذلك لا ينجحون . وانما ينجحون متى عملوا بقواعد المسيح وهي ابتغاء اعلى صورة للكمال في الارض لا خيرات الارض . وهذا المبدأ يوجب على طالبي اصلاح الارض التخلي عنها وعن خيراتها لا الاستيلاء عليها

ومن جهة اخرى فانه ربما كانت كلمة «ملكوت الله» تعزية واي تعزية للذين يرون فساد العالم الآن و يعتقدون بحدوث تغيير فيه في مستقبل الزمان . فان الذين لا يقدرون على الاعتقاد بوجود عنصرين مستقلين في جسم الانسان لان هذا الاعتقاد مناقض لعلم الفسيولوجيا يطيب لهم ان يؤملوا بحدوث تغيير عظيم في نهاية العالم و ينتظروا في القرون الآتية عالماً صالحاً يكون صلاحه جائزة للبشر على ما احتملوه من الشقاء والفساد في حياتهم الماضية . ومن يعلم اذا كان ذلك لا يتم في بضعة ملايين من القرون فتنتبه حينئذ في الارض كل المبادىء الصالحة و يصير البشر كالملائكة . ان مليون سنة تمرّ كساعة تمر. وقد قال القديس بولس «هوذا سرٌّ اقوله لكم . لا نرقد كلنا ولكننا كلنا نتغير في لحظة في طرفة عين عند البوق الاخير فانه سيبوق فيقام الاموات عديمي فساد ونحن نتغير» (كورنثوس الاصحاح ١٥ العدد ٥١ و٥٢)

فيومئذ يُنتقم للصالح من الشرير . يومئذ تسود في الارض انسانية فاضلة كريمة يكون فيها المقام الاوّل للخير والفضيلة لا للقوة والمال ويكون فيها ابن الفقير الفاضل حاكماً وصدراً . يومئذ تظهر صورة يسوع اكثر جلاء و يخجل كل الذين نظروا تلك الصورة المؤلفة من الفقر والتواضع والفضيلة ولم يؤمنوا بها وكل المتكبرين الذين آمنوا بها ولكنّ انانيتهم وكبرياءهم وطياشتهم منعتهم من العمل بوصاياها

الفصل السادس عشر

المائدة وكسر الخبز حسب العادة الشرقية · العلم والعمل فيما يختص بالانجيل

وكان التلامذة يومئذ لا يكتبون شيئاً من اقوال يسوع لان « ملكوت الله » صار قريباً فلا حاجة الى الكتابة · وكان من اجمل اوقاتهم وقت الجلوس الى مائدة الطعام · فان يسوع كان يحادث كل واحد منهم على المائدة · وكان من عادات اليهود ان ياخذ كبير البيت الخبز و يباركه بصلاة وجيزة ثم يكسره ويقدمه الى كل واحد من الجالسين · وكذلك الخمر · ولا تزال هذه العادة عند الاسرائيليين الى هذه الايام · وقد غالى الايسينيون في ذلك فجعلوا للمائدة احتفالاً وطقوساً خصوصية · وكان اذا اكل بضعة من الرجال الخبز معاً عُدَّ ذلك بمثابة رباط يربطهم بعضهم ببعض بسبب هذه الاشتراك (١) · وكان السيد يكسر الخبز على هذا الوجه ويناوله الى تلامذته · وكان يقول لهم انا غذاؤكم الروحي لانه سيدهم ومعلمهم · ولما كان يناولهم الخبز والخمر كان يقول لهم هذا جسدي وهذا دمي

وكانت هذه المعيشة المبنية على انتظار « ملكوت الله » مما يزيد التلامذة انقطاعاً عن الارض وكراهة للعالم · فكان الميل لاقتناء الملك في الارض يُعتبر نقصاً في النفس وكل ما يُبعد الانسان عن السماء يجب ان يُنبذ نبذاً · وكان بعض التلامذة متزوجين الا ان التلميذ العازب بعد اتباعه السيد لم يكن يتزوج على الارجح لان العزوبة كانت مفضلة على الزواج · وكان يجب على الذين يدخلون في سلك التلامذة ان يتركوا كل شيء في العالم حتى النفس والاب والام والاخوة والمال ويتبعوا السيد · هذا فضلاً عن المبادىء السامية الاخرى التي هي عبارة عن اعلى صورة للكمال البشري

ولكنَّ سموَّ هذه المبادىء كان لا يخلو من خطر على المستقبل · لانها تجعلَ الانجيل كتاباً بالغاً من الكمال درجة قلما يهتم كثيرون من الناس للوصول اليها · وبناءً عليه تبقى تلك المبادىء غير معمول بها حتى من الاكليروس نفسه · وفضلاً عن ذلك فانه اذا رام احد من الناس الرجوع الى الانجيل والعمل بمبادئه و بروحه عدَّ

---

(١) وفي الشرق يقولون اليوم « من اكل خبزاً وملحاً مع انسان وجب عليه ان لا يخونه » وذلك لان هذا الاشتراك يوجب الصداقة والامانة · ومن اقوالهم « تفضل وما لخبز وملح » ... يدعون به الى مائدة الطعام والصداقة

الاكليروس عمله هذا خطراً على الناس . واذا قام ملك وكان اكثر الناس تكبراً وتجبراً واشدهم حباً للمصلحة واكثرهم قسوة مثل لويس الرابع عشر مثلاً فانه يجد من الكهنة من يقنعه على رغم الانجيل انه مسيحي لا شك فيه . ولكن كما يقوم اناس كهؤلاء يقوم ايضاً اناس للعمل بمبادىء الانجيل حرفاً بحرف فيضطرون الى المعيشة خارج الهيئة الاجتماعية في الصوامع والديور كما يصنع الرهبان

الفصل السابع عشر

انتيباس ويسوع . مقاومة الفريسيين له . فرق الفريسيين . فلاسفة اليهود ومقاومتهم لهم قديماً . التهكم وضربات الله

ولما بلغت اعمال السيد الى انتيباس والي الجليل رام مشاهدته فرفض يسوع ذلك لكراهته الدخول في المسائل السياسية وانصرافه الى تعليم الشعب واستمالته دون سواه . ولكن انتيباس لم يلبث ان سمع من الناس ان يسوع هو يوحنا المعمدان وقد بعثه الله فاضطرب لذلك ورغبة في ان يُخرج يسوع من ولايته بعث اليه بعض الفريسيين يقولون له ان انتيباس عزم على القاء القبض عليه وقتله كما قتل يوحنا المعمدان . فلم يعبأ يسوع بهم ولا بحيلتهم . اما انتيباس فانه لما رأى بساطته وكراهته لاثارة خواطر الشعب اطمأن باله وعدل عن اضطهاده

اما الفريسيون فانهم كانوا يقاومون السيد ويعارضونه معارضة شديدة فوجبت مقاومتهم مقاومة شديدة ايضاً . ومن المشهور عن اليهود ان من صفاتهم شدة الوخز في الجدال والمناظرة حتى انه لم يقم يوماً بين الناس مناظرات شديدة كالمناظرات التي كانت تقوم بينهم . وكانت الشدة ضرورية في هذه الحالة لمقاومة القوة بالقوة . ومما لا يحتاج الى بيان ان لوثيروس ورجال الثورة الفرنسوية لو لم يُظهروا شدة وعنفاً في اعمالهم لما كانوا قد عملوا شيئاً

وكان هؤلاء الفريسيون قوماً يراعون الظواهر الدينية دون البواطن . وكانوا اقساماً . فمنهم فريق يُدعى « نيكفي » وهم الذين يسيرون في الشوارع ويجرّون اقدامهم جرّاً ويصدمون بها الحصى والحجارة . ومنهم فريق يُدعى « كيزاي » اي ذوي الجباه الدامية وهم الذين كانوا يسيرون في الشوارع مغمضي العيون لئلا يقع نظرهم على النساء ولذلك

كانوا يصدمون الجدران في مشيهم فتدمى جباههم · ومنهم فريق يدعى « ميدوكيا » وهم الذين كان كل واحد منهم يعيش مطويا قسمين · ومنهم فريق يدعى « شيكمي » اي ذوي المناكب القوية وهم الذين يسيرون وظهورهم محنية كأنهم يحملون عليها اثقال الناموس كلها · ومنهم فريق يُدعى « اي عمل يجب عمله لا عمله » وهم الذين كانوا يطلبون قواعد الناموس في كل مكان للعمل بها

ولكن الفريسيين لم يكونوا في الحقيقة يعملون بالقواعد التي تقدَّمت ولا بقواعد الناموس بل كانوا يُظهرون انهم يعملون بها · اما الشعب فكان ينخدع بهم ويصدق اقوالهم · ذلك ان الشعب سهل الانخداع خصوصاً متى كان لرؤسائه مصلحة في خداعه · فانه يرى فيهم اموراً جديرة بالحب فيحبها ولكنهُ لا يرى ما تحت هذه الامور من البواطن الحائلة

فبناء على ذلك كان لا بدَّ من قيام النفور بين نفس يسوع البسيطة ونفوس الفريسيين الجافة اليابسة · فان السيد كان يدعو الى ديانة مبنية على نقاء الباطن وصفاء القلب · اما الفريسيون فكانت ديانتهم عاداتهم وطقوسهم الاعتيادية · وكان الفريسي في اعتقادهم رجلاً معصوماً عن الخطاء فاذا جادل كان الحق في جانبه دائماً واذا دخل الى المجالس طلب المجلس الاوَّل واذا مشى في الشوارع راقب الناس اذا كانوا يحيّونهُ او لا واذا تصدَّق بشيء بوَّق بصدقته تبويقاً · ولقد قام كثيرون من كرام اليهود لمقاومة هؤلاء الفريسيين منهم يشوع بن سيراخ وغمالائيل وانيكون دي سوكو والرجل الكريم اللطيف الفيلسوف هلل وكلهم علموا تعليماً سامياً يكاد يكون انجيلياً · ولكن الفريسيين استطاعوا خنق تعاليمهم وحرموا من يقراءها · وكانت قاعدة مبادىء الفيلسوف هلل ان الناموس الحقيقي هو العدالة والحق · وقاعدة مبادىء يشوع بن سيراخ ان الديانة الحقيقية هي صنع الخير في العالم

الا ان مبادىء شماي تغلبت على هذه المبادىء العالية وقوي الفريسيون وانصارهم فكان من نتيجة هذه القوة نشأة كثير من التقاليد والعادات التي غطت الناموس الاصلي فلم يعد ظاهراً معها · ولا يُنكر ان ذلك قد كان مفيداً من جهة حفظ التقاليد اليهودية قروناً عديدة لتكون خميرة للديانة المسيحية ولكن الجامع التي كانت امَّ تلك التقاليد لم تعد بعد استفحالها الا امَّ الخطاء والضلال · ولذلك كان قد قُضي عليها بالسقوط ان لم يكن بالاضمحلال · ومع ذلك فقد كان من الظلم ان يُطلب منها حينئذٍ ان تُنكر ذاتها وتتنازل

عن سلطتها من تلقاء نفسها لان ذلك امر لا يصدر عن البشر في هذه الحياة

وبناء على ذلك كانت المقاومة مستمرة بين يسوع وبين الرياء الفريسي الرسمي · ومما كان يضعف حجج الفريسيين ابتعادهم يومئذ عن التوراة ابتعاد المسيحيين عن الانجيل في هذا الزمان · فنشأ عن ذلك في نفوس الفريسيين بغض للسيد لا ينتهي حتى الموت · فانهم تركوا الشعب يسمي يوحنا المعمدان نبياً اذ كان امره صغيراً اما يسوع فان روحه كانت تنقض اساس هيئتهم نقضاً ولذلك كان الخلاف بينهم للموت · ومما كان يتقدم الرشد سهام التهكم الحادة التي كان يسوع يرشقهم بها · فان هذه السهام كانت تصيب قلوبهم · واذا قيل من اين هذه الامثال البديعة المملوءة تهكماً قائلاً وتلك العبارات القاصة بسهام حادة تنفذ في لحم المرائين كانها صنعت من نار ومن علقها في ذيول الفريسيين وجعلهم يجرونها وراءهم منذ ١٨ قرناً الى اليوم · فالجواب ان يسوع هو الذي صنعها وعلقها · فيالك من تهكمات هائلة هدمت عالماً وقتلت امة · ان سقراط ومولير قد رشقا بسهام ولكن سهامهما كانت تخدش الجلد خدشاً · اما هذه السهام فكانت تغوص الى القلوب وتضع النار واليأس فيها · فلا ريب ان هذه الضربات ضربات اله

الفصل الثامن عشر

سفره الاخير الى اورشليم · وادي الجثمانية · جبل الزيتون · بيت عنيا · سبب خوف الشعب من انبائه · تركه المسائل السياسية · حملته على الكهنة والفريسيين

وقد كان السيد يرى الخطر الذي على حياته من الفريسيين ولذلك اقام ١٨ شهراً في الجليل دون ان يسافر الى اورشليم · وكان الفريسيون قد حاولوا جره الى الامور السياسية في الجليل ليتخذوها حجة لدى انتيباس والحكام الرومانيين الا ان يسوع تغلب على مكرهم هناك · ولكنه كان يرى انه اذا بقي في الجليل فانه لا يستطيع ان يتم عمله لان اورشليم مركز كل عمل · فرأى بالرغم عن الخطر وجوب السفر الى اورشليم فعاد اليها مع تلامذته للتعليم في الهيكل ومناظرة الفريسيين

وقد اختار يسوع في اورشليم ثلاثة مواضع للاستراحة فيها من عناء مباحثة الفريسيين · الاول وادي «الجثمانية» التي ربما كان معناها معمل الزيت · وكان سكان اورشليم يتخذون هذا المكان للتنزه فيه في كل مساء · والموضع الثاني جبل الزيتون وكان يسوع يصعد اليه بعد التنزه في الجثمانية ويصرف الليل فيه · اما هذا الجبل فهو قائم في شرقي المدينة وهو المكان

الوحيد الذي يظهر فيه الخصب والنبات في اورشليم . فقد كان فيه وفي ما جاوره من القرى كيت فاجي والجثمانية وبيت عنيا اشجار كثيرة من الزيتون والتين والنخيل . وكان في الجبل ارزتان كبيرتان كانت تعشش فيهما طيور الحمام ويبسط الباعة تحت اغصانهما بضائعهم للبيع والشراء . وقد حفظ اليهود بعد تشتت شملهم تذكار هاتين الارزتين

ففي هذه الاماكن كان يقيم يسوع وتلامذته . اما الموضع الثالث الذي كان يتخذه لراحته فهو قرية بيت عنيا . وهذه القرية قائمة على احدى الآكام المشرفة على الاردن والبحر الميت وهي على مسافة ساعة ونصف من اورشليم . وكان يسوع يفضل الاقامة في هذه القرية الجميلة على ما سواها وفيها تعرّف بمرتا ومريم ولعازر . وكان يسوع اذا اقام في الاماكن التي تقدم وصفها نسي شيئاً من عناء المجادلات الشاقة مع الفريسيين المرائين . وكان اذا اشرق الفجر وطلعت الشمس على جبل الزيتون تنثر تبرها الجميل عليه وقف يسوع متأملاً في تلك المناظر البديعة التي حوله فيسر بها سروراً يخالطه شيء من تذكار مؤلم . فيلتفت حينئذٍ الى اورشليم امامه ويخاطبها قائلاً :

« يا اورشليم يا اورشليم . يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين اليها . كم مرة اردت ان اضم اولادكِ كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدي »

وليس المقصود بذلك ان الشعب اليهودي في اورشليم لم يكن يقبل تعاليم يسوع لانه اغلظ نفساً من رجال الجليل كلاً ولكن التعاليم الفريسية الرسمية كانت تضغط على النفوس الى حد انه لم يكن احد من الناس يجترئ على التصريح بذلك . وفضلاً عن هذا فان اليهود كانوا يخشون اذا تبعوا يسوع ان يقال انهم خضعوا لرجال من الجليل ولا يخفى ان بلاد الجليل كانت بلاداً مكروهة في اورشليم كما تقدم . ومن جهة اخرى فان اتباع يسوع كان يفضي الى الطرد من المجامع (المعابد) والحرمان من الحقوق الدينية . وهذا الحرمان يستوجب في الشريعة اليهودية حجز الاملاك وفي ذلك ما فيه من الاهانة والخسارة . وزد على ذلك ان الذي كان يخرج من اليهود لم يكن له ان يصير رومانياً بل يبقى بلا حام ولا نصير تحت ضربات سلطة جائرة . وفي ذات يوم جاء اصاغر حراس الهيكل الى كهنتهم بعد ان سمعوا احدى عظات يسوع واطلعوهم على ما قام في نفوسهم من الشكوك وعن رضى الشعب عن تلك التعاليم فاجابهم كهنتهم « هل رايتم احداً من الرؤساء او من الفريسيين آمن به . ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون »

اما يسوع فانه كان يجدّ في الوعظ وتعليم الشعب في الهيكل . وكانت سلطته آخذة

في التعاظم والازدياد واستمرّ الشعب يقبل تعاليمه السامية البسيطة دون ان يُظهر التسليم بها خوفاً من رؤسائه . ففي ذات يوم جاءه الفريسيون بزانية وسألوه بماذا يجب ان تُعامل وقد ظنوا انهم بذلك يُظهرون ضعف تعاليمه امام الشعب . فاجابهم السيد بذلك الجواب الهائل الذي كان كسهم اخترق الرياء وغاص في قلوبهم . فقد قال لهم « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » ومنذ هذه الكلمة اضمروا له الشر ونووا قتله ليستريحوا من مقاومته . ولا غرو فان الحمقى يكرهون العظمة الادبية اشد كراهة ولا سيما اذا اقترنت بفصاحة اللسان وبلاغة الجنان

وكانت همة الفريسيين مصروفة الى جعل السيد يتداخل في الامور السياسية لتخذوها حجة عليه لدى اسيادهم الرومانيين كما تقدم . فجاءه بعضهم في ذات يوم مظهرًا الحب له وقالوا له « يامعلم . نعلم انك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالي باحدٍ لانك لا تنظر الى وجوه الناس . فقل لنا ماذا تظن . ايجوز ان تُعطى جزيةٌ لقيصر ام لا » وكانوا يتوقعون عند هذا السؤال ان يجيب السيد بجواب يوجب تسليمه الى بيلاطس لقتله كما قُتل يهوذا الغولونيتي الذي كان يحرّم دفع الجزية للرومانيين كما تقدم . اما يسوع فانه اجاب جواباً بديعاً . فانه قال لهم اروني اولاً النقود فاروه ديناراً فسألهم لمن هذه الصورة وهذه الكتابة اللتين على الدينار فاجابوه انها لقيصر . فقال السيد : اذًا اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله . وبهذه الكلمة وضع يسوع اساس الفصل بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية وبنى بحكمتها دعائم مستقبل الديانة المسيحية

وكانت بلاغته الالهية تحضره كلما رام محاربة الرياء والمرائين كما تدل على ذلك الاقوال الآتية التي فاه بها في الهيكل ضد كهنة ذلك الزمان

« على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون فاعملوا حسب اقوالهم ولكن لا تعملوا حسب اعمالهم لانهم يقولون ولا يفعلون . فانهم يحزمون احمالاً ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على اكتاف الناس وهم لا يريدون ان يحركوها باصبعهم . وهم يعملون كل اعمالهم لكي تنظرهم الناس فيعرّضون عصائبهم ويعظّمون اهداب ثيابهم ويحبون المتكأ الاول في الولائم والمجالس الاولى في المجامع والتحيات في الاسواق وان يدعوهم الناس سيدي سيدي . فالويل لهم

« ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم اخذتم مفتاح المعرفة ولم تستعملوه الا لاغلاق ملكوت السماوات فلا تدخلون انتم ولا تدعون الداخلين يدخلون . ويل لكم يامن تأكلون بيوت الارامل باطالة صلواتكم ولذلك تكون دينونتكم على قدر ذلك . ويل لكم

يا من تطوفون البحر والبر لتفهموا اليكم رجلاً واحداً ومتى حصلتم عليه تصنعونه ابنا لجهنم . ويل لكم لانكم مثل القبور المستورة والذين يمشون عليها لا يعلمون

« ويل لكم ايها المراؤون والعميان لانكم تعشرون النعنع والشبث والكمون وتتركون افضل ما في الناموس اي الحق والرحمة والايمان . فقد كان ينبغي ان تعملوا هذه ولاتتركوا تلك . ويل لكم ايها القادة والعميان الذين يصفون الكأس عن البعوضة حالة كونهم يبلعون الجمل

» ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تنقون خارج الكأس والصحفة وهما من داخل مملوءتان سرقة وشراهة . ايها الفريسي الاعمى نق اولاً داخل الصحفة لكي يكون ايضاً خارجها نقياً

« ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام اموات وكل نجاسة . انتم من خارج تظهرون للناس ابراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء واثماً

« ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تبنون قبور الانبياء وتزينون مدافن الصديقين وتقولون لو كنا في ايام آبائنا لما شاركناهم في دم الانبياء . فانتم اذاً تشهدون على انفسكم بانكم ابناء قتلة الانبياء . فاتموا اذاً عمل آبائكم «فقد جاء في حكمة الله « ها انا ارسل اليكم انبياء وحكماء وعلماء فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطاردون من مدينة الى مدينة لكي يقع عليكم كل دم زكي سفك على الارض من دم هابيل الصديق الى دم ذكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح . الحق اقول لكم ان هذا كله يقع على هذا الجيل »

واشد ما كان يغيظ الفريسيين في هذه التعاليم امران . الاول ان ملكوت الله آخذ في الانتقال من اليهود الى باقي الامم لان اليهود يضطهدون ويقتلون الانبياء والرسل الذين جاؤوا ليرشدوهم اليه . والامر الثاني دعوة يسوع الفقراء والصغار الى احتلال محل الكبراء لئلا يبيد ملكوت الله . وقد كان يقول انه جاء الى هذا العالم ليفتح عيون الذين لا يبصرون ويعمي الذين يبصرون (يوحنا الاصحاح ٩ العدد ٣٩) ولكنه في ذات يوم بدرت من فمه هذه العبارة عن الهيكل « اني اهدم هذا الهيكل الذي بنته يد الانسان وابني في ثلاثة ايام هيكلاً غير مصنوع بالايدي » فتمسك الفريسيون بهذه الكلمة لانهم اعتبروها تجديفاً على الهيكل واتخذوها حجة لشكواه الى الحكومة . وكانت حكومة الرومانيين توجب

احترام الديانة اليهودية وتنفذ القرارات التي يصدرها رؤساؤها

الفصل التاسع عشر

السياحة في بيريا · واحة اريحا · اجتماع المجمع · قيافا وحنانيا · عداء المحافظين

وقد صرف يسوع فصل الخريف وقسماً من الشتاء في ذلك العام في اورشليم وكان البرد شديداً فيها · وكانت اقامته في رواق سليمان في الهيكل · وبعد شهر دسمبر من ذلك العام ساح سياحة في بلاد بيريا في عبر الاردن حيث عاش يوحنا يعمد · فوجد سروراً وراحة في هذه السياحة ولا سيما في مدينة اريحا · وكانت هذه المدينة قائمة في طرف طريق عمومية كبرى وفيها كثير من الحدائق والحقول الخصيبة ولذلك اقام الرومانيون فيها جمركاً كبيراً · وكان رئيس هذا الجمرك رجلاً غنياً وهو العشار زكا فاحب مشاهدة السيد · وبما انه كان قصير القامة صعد الى جميزة ليراه منها في مروره · ولما درى السيد به رام النزول في بيته دون ان يعبأ بكراهة اليهود للعشارين كما تقدم · اما واحة اريحا فقد كانت بقعة من اجمل بقاع سوريا يومئذ وقد وصفها يوسيفوس معجباً بخصبها كما اعجب ببلاد الجليل ولقبها «البلاد السماوية»

وبعد ان زار يسوع البلاد التي عمد فيها يوحنا المعمدان والتي كان فيها بدء تعليمه عاد الى بيت عنيا حيث كانت تطيب له الاقامة · وبعد اعجوبة لعازر عاد الى اورشليم

اما الفريسيون فانهم كانوا في اثناء ذلك يتباحثون في شأنه · وقد جمع رؤساء الكهنة في شهر فبراير او في اوائل مارس من ذلك العام مجمعاً وطرحوا فيه هذه المسألة «هل في الامكان بقاء الديانة اليهودية اذا بقي يسوع حياً» واحياناً قد يكون في السؤال جواب ولذلك لم يلبث رئيس الكهنة ان قال «لا بأس ان يموت واحد لتحيى الامة»

وكان رئيس الكهنة يوسف قيافا وقد رقاه الى هذا المنصب الحاكم الروماني فالاريوس كراتوس ولذلك كان مخلصاً للرومانيين · وقد ثبت هذا الرجل في رئاسة الكهنة من عام ٢٥ للميلاد الى عام ٣٦ · اما سلطة هذا الرئيس فقد كانت اسمية على الارجح · اذ قد كان فوقه رجل يدعى حنانيا او حنان وهو شيخ كان رئيساً للكهنة ثم فصل وتزوج قيافا بابنة له · ولكنه مع انفصاله عن رئاسة الكهنة بقيت له سلطة كبرى عليها وبقي الشعب يناديه «رئيس الكهنة» وكانوا يستشيرونه في كل المسائل الهامة · ومما زاد سلطته ان رئاسة الكهنة بقيت في اسرته مدة ٥٠ سنة وكان قيافا الرئيس الحقيقي صهراً له ·

ولذلك كان يرد اسماها معاً في هذه الحوادث . وكثيراً ما كان يرد اسم العم مقدماً على اسم الصهر . وقد ذكر يوسيفوس ان هذه الاسرة كانت مشهورة بالقسوة في الاحكام . ومما يجدر ذكره ان الذي حكم برجم يعقوب اخي يسوع هو من ابنائها . وبناء على ذلك تكون تبعة الحوادث القادمة على حنانيا لا على قيافا . وهو الذي يجب ان يحمل على عاتقه لعنة الانسانية اكثر من بيلاطس وقيافا

وكان جمهور الاكليروس اليهودي راغباً في وضع حد لهياج الشعب وثورة الافكار . ذلك انهم توقعوا من وراء هذا الهياج استفحال سلطة الرومانيين في بلادهم . ومتى استفحلت تلك السلطة هدمت الهيكل وقطعت رزقهم . ولا ريب ان الاسباب التي دعت الى خراب الهيكل بعد مرور ٣٧ سنة على هذا التاريخ لا علاقة لها بالامر الذي تقدم ولكن خوف الفريسيين من انقلاب الاحوال كان عظيماً . ولو قبل اليهود يومئذ تعاليم يسوع لسقط الهيكل وسقطت امته معه . ولذلك قال حنانيا وقيافا « خير ان يموت واحد من ان تموت الامة كلها » . ولكن هذا الحكم فظيع وهائل . ويسوءنا ان نقول ان جميع الاحزاب المحافظة التي تسمي نفسها « حزب النظام والامن العام » تحكم احكاماً كهذا الحكم . فانها تعتبر ان اكبر واجبات الحكومة منع تأثر الشعب وهياجه بكل الطرق ولذلك لا يقوم احد قادر على الحركة الا وتقف في وجهه ولو افضى الامر الى سفك دمه . وهي بذلك تشهر حرباً على كل ذي اقدام وكل ذي فكر وتجهل ان هذا الفكر لا بدَّ ان ينتصر . ومما لا يحتاج الى بيان ان الحركة السامية التي كان يديرها يسوع كانت حركة روحية لا علاقة لها بالسلطة الزمنية . ومع ذلك فقد كانت هذه الحركة كافية لاثارة اوهام الرجال الذين يسمون انفسهم رجال النظام والهدوء لانها حركة . ولذلك صنعوا ما صنعوه

الفصل العشرون

يسوع في الاسبوع الاخير . مريم والطيب . دخوله اورشليم على اتان . خيانة يهوذا . عشاء الوداع

وكان هؤلاء الرؤساء قد قضوا على يسوع بالموت منذ شهر فبراير ومارس . ولكن يسوع كان قد سافر مع تلامذته الى مدينة تدعى افراين او افرون وهي بلدة على حدود البرية في جهة يبتل على مسافة يوم من اورشليم . وقد صرف يسوع في هذه القرية بضعة اسابيع مع تلامذته لعل الزوبعة في اورشليم تسكن قليلاً . ولكن الزوبعة لم تسكن لان الرؤساء

اصدروا الامر بالقاء القبض على يسوع حينما يشاهد في الهيكل . ذلك ان عيد الفصح اليهودي كان قريباً وكانوا يعلمون ان يسوع سيصرفه في اورشليم

وفي الواقع ان يسوع رام العودة الى اورشليم قبل عيد الفصح . ولكنه عاد اليها مع تلامذته بنفس مضطربة لما كان يتوقع حدوثه فيها . وكان يُحدّث تلامذته في الطريق عن نفسه بحزن ويقول لهم انه قد بلغ النهاية . فساء التلامذة هذا الامر لانهم كانوا يتوقعون تحقق الملكوت الذي كانوا في انتظاره . اما يسوع فانه كان يرى انه مستقبل الموت ولكنه كان يعتقد بان موته يخلص العالم ويحقق ذلك الملكوت

وكانت العادة ان الذين يرومون الحجّ الى اورشليم يفدون عليها قبل عيد الفصح ببضعة ايام ليستعدوا للعيد . فلما اقترب الفصح ولم يأتِ السيد خشي الكهنة من ان يكون قد عدل عن القدوم فيفوتهم القبض عليه . ولكن لم يلبث ان سكن خاطرهم اذ دروا انه قد قرب من اورشليم اذ كان قد وصل الى بيت عنيا في ٢٨ مارس اي قبل عيد الفصح عند اليهود بستة ايام . وكان نزوله في بيت عنيا في بيت مرتا ومريم او بيت سمعان الابرص . وقد احتُفل بعودته احتفالاً عظيماً . وفي هذه الزيارة اقيمت ليسوع مأدبة في بيت سمعان الابرص ورغبة في زيادة اكرامه دخلت مريم في اثناء المأدبة وفي يدها قارورة طيب ثمين فسكبت الطيب على قدمي يسوع ثم كسرت القارورة جرياً على عادة شرقية قديمة توجب كسر الاناء الذي يستعمله ضيف كريم . ثم انها مبالغةً في اظهار حبها واحترامها ليسوع اتت امرًا لم يسبق له مثيل قبل ذلك وهو انها جثت على الارض امامه ومسحت بشعرها الطيب الذي كان على قدميه . فانتشرت عند ذلك في المكان رائحة الطيب الذكية فانشرحت لها صدور الحاضرين الا صدر يهوذا الخريوطي . ذلك ان هذا التلميذ كان امينًا لصندوق الطائفة المسيحية وكان مشهورًا بالبخل والاقتصاد . فلما راى ذلك الطيب الثمين ضائعاً (بالمعنيين) لم يتمالك من تعنيف مريم على هذا الاسراف بقوله انه كان يجب ان يُباع ويُعطى للفقراء اي ان يدخل في صندوق الجمعية . فلما سمع يسوع هذه الملاحظة قال « ان الفقراء معكم في كل حين واما انا فلستُ معكم في كل حين » ثم وعد تلك المرأة بخلود الاسم الى الابد

وفي اليوم التالي نزل يسوع من بيت عنيا الى اورشليم . ولما صار في منعطف الطريق على قمة جبل الزيتون ورأى اورشليم منبسطة تحت عينيه بكى عليها وخاطبها . ثم وصل الى حي بيت فاجي القائم تحت سفح الجبل قرب اورشليم . وكان هذا الحي من احياء المدينة

المقدسة وفيه يقيم اكثر الكهنة . فاستقبله عند هذا الحي كل الجليليين الذين اتوا يحجون الى اورشليم وجاءوا باتان يتبعها جحش واركبوه عليها . ثم انهم فرشوا الطريق بملابسهم وباغصان الاشجار وحملوا سعوف النخل ودخلوا بيسوع الى المدينة يهتفون « اوصنا لابن داود . مبارك الآتي باسم الله » ولم يكتف بعضهم بذلك بل سماه ملك اليهود . فلما سمع الفريسيون ذلك قالوا له « يا ربي اي يا معلم مرهم ان يسكتوا » فاجابهم يسوع اذا سكتوا فان الحجارة تهتف بدلاً منهم

وحين دخول يسوع سأل بعض الجموع من هذا فاجابوهم « انه يسوع نبي الناصرة في الجليل » . وكان عدد سكان اورشليم في ذلك الزمان ٥٠ الف نفس . والعادة ان حادثة كهذه الحادثة لا تترك بعدها اثرًا وقتاً طويلاً ولكن اورشليم لم تكن لسكانها في ايام الاعياد بل كانت للغرباء القادمين اليها . ولذلك ازدحم هؤلاء الغرباء وتحمسوا يرومون مشاهدة يسوع . وبعض من المتكلمين باللغة اليونانية لم يكتفوا بالمشاهدة بل خاطبوا التلامذة وطلبوا مقابلته . ولا يدري احد بما تم بعد هذا الطلب

اما يسوع فانه عاد في ذلك المساء الى قريته العزيزة « بيت عنيا » فبات ليله فيها وفي الايام الثلاثة التالية اي الاثنين والثلثاء والاربعاء كان ينزل الى اورشليم في النهار وفي الليل يبيت في بيت عنيا او في احدى المزارع القائمة في غربي جبل الزيتون حيث كان له اعزاء كثيرون

وكان الفريسيون والكهنة قد ابتهجوا بعودته الى المدينة . اما يسوع فانه كان سكوتاً مضطرباً . وقد اجمعت على ذلك الاناجيل الاربعة . وكان يقول احياناً « نفسي حزينة حتى الموت . خلصني يا ابتاه من هذه الساعة » واحياناً يصعد الى الجبل مع بعض تلامذته ويصلي فيه ووجهه لاصق بالثرى . فكل ما نقوله في هذا الامر هو ان العمل العظيم الذي اقدم يسوع عليه ظهر له حينئذٍ بمظهر جديد لانتباه الطبيعة البشرية . ولا عجب في ذلك فان من اوقف نفسه لفكر عظيم وبذل في سبيل هذا الفكر كل رخيص وغالٍ حتى راحته وقواه وكل ما تملكه يداه لجدير بان يعود الى نفسه عند ظهور خيبة ذلك الفكر له ويتأمل في مصيره . ولكن قوة يسوع الالهية لم تلبث ان تغلبت على الطبيعة البشرية ودفعته الى الامام دون مبالاة بموت . ومنذ هذا الحين دخل يسوع في طور جديد وصارت صورته عبارة عن صورة كاملة فيها تعزية وقوة لجميع النفوس الحزينة المعذبة في هذه الحياة . اما التلامذة فانهم كانوا لا يعلمون شيئاً مما قام في نفس سيدهم

واذا كانت عودة يسوع الى اورشليم قد سرّت الفريسيين واكابر اليهود فقد ساءهم ذلك الاحتفال العظيم الذي اقيم له حين دخوله الى المدينة . ولذلك انعقد مجلس رؤساء الكهنة في يوم الاربعاء عند يوسف قيافا وتقرر فيه القبض على يسوع في الحال . وبما ان عيد الفصح كان واقعاً في يوم الجمعة والناس يزدحمون فيه ازدحاماً شديداً فقد قرروا القبض عليه قبل العيد لئلا يحدث شغب في الشعب لان يسوع كان محبوباً اليه . فعينوا يوم الخميس لذلك . وفضلاً عن ذلك فانهم قرروا ايضاً القبض عليه وهو في احدى خلواته لا في داخل الهيكل فراراً من الهياج . ولذلك ذهب بعض من الكهنة ليجسوا تلامذته ويستعلموا منهم ما يريدون علمه . فوجدوا ضالتهم لدى يهوذا الاسخريوطي . فان هذا التلميذ التعس خان سيده لاسباب لا تزال مجهولة . وكان هذا الرجل محسوباً تلميذاً حتى ذلك الوقت وله الحق بلقب « رسول » وكان يصنع عجائب ويطرد شياطين . وكان اميناً لصندوق الطائفة المسيحية الاولى فاذا سلّم سيده وسيدها انفرط عقدها وخسر وظيفته ومكانته . فما الفائدة التي كانت له من هذا التسليم . امبلغ تافه من المال كثلاثين فضة . ذلك امر غير معقول . والراجح انه كان بينه وبين التلامذة منافسات بسبب حبه للاقتصاد وتوفير المال للطائفة . وربما كان في الملاحظة التي لاحظها السيد في بيت عنيا على يهوذا عن الطيب الذي سُكب على قدميه ما اسخط هذا الرجل وابعد قلبه عن سيده . ولكن هذا الرجل لا يستحق كل اللعنات الهائلة التي صُبت على راسه من جراء هذا التسليم لان قلبه لم يبتعد عن سيده الا ابتعاداً وقتياً بدليل انه بعد ارتكابه الجرم ذهب وشنق نفسه . فرجل فاسد السيرة والسريرة فساداً حقيقياً لا يندم هذا الندم على جرمه . وانما كان جرمه نتيجة فساد ساعة طرأ على نفسه ثم عاد ضميرها اليها

والآن قد وصلنا الى الساعة الهائلة التي كل دقيقة منها تُحسب بمثابة قرن في تاريخ الانسانية . وصلنا الى يوم الخميس ٢ ابريل (نيسان) وهو موعد القبض على يسوع . وكان بدء عيد الفصح واقعاً في اليوم التالي وفيه ياكل اليهود حمل الفصح . ثم يستمر العيد ستة ايام يؤكل فيها الخبز المقدس . فتكون مدة العيد عندهم سبعة ايام واعظمها الاول والاخير اذ يُقام فيها احتفالات كبيرة . ولذلك اخذ التلامذة يستعدون لليوم الاول من الفصح

اما يسوع فانه علم بخيانة يهوذا ووعده الفريسيين ان يسلمه اليهم . وفي ذلك المساء جلس يسوع والتلامذة الى الطعام الاعتيادي لان الفصح لا يؤكل الا في اليوم التالي . وكان يسوع في هذه الجلسة هادئاً لطيفاً ولا سيما مع يوحنا وبطرس . انما كان في نفسه شيء

لم تفتش عنه المرأة مريم المجدلية مع السيد يا سي رينان

ساعة الصلب أين كان أبوه؟

(المصري ٢)

من خيانة يهوذا · وكان يوحنا ممدداً على مقعد ورأسه مسنود الى ركبة يسوع · وفي نهاية الطعام ثقلت خيانة يهوذا في نفس يسوع فقال « الحق اقول لكم ان احدكم سيخونني» فدهش التلامذة وبهتوا واخذوا ينظرون بعضهم الى بعض · وربما كان قصد يسوع من ذلك ان يرى ماذا يكون لذلك الكلام من التاثير على وجه يهوذا · اما بطرس فان نفسه المتقدة الكريمة اصبحت عند ذلك في عذاب شديد. فاشار الى يوحنا الذي كان قريباً من يسوع ان يسأله عن معنى هذا الكلام · فسأله يوحنا همساً فلم يصرح له السيد باسم احد من التلامذة لان خيانة يهوذا لم تكن قد ثبتت بعد · وانما قال له ان الخائن هو الذي سيقدم له لقمة مغموسة بالمرق · وكانت العادة في الشرق ان رئيس المائدة اذا رام اكرام احد من الجالسين تناول شيئاً من الطعام وجعله لقمة ثم قدمه اليه · ففعل يسوع ذلك وقدم اللقمة الى يهوذا · فلم يدر بهذا السر غير بطرس و يوحنا · و بعد ذلك وبخ السيد يهوذا توبيخاً لم يفهم التلامذة معناه وخرج (١)

وفي هذه الجلسة غسل يسوع ارجل تلامذته وقال لهم (انتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون لاني انا كذلك · ولكن ان كنت وانا السيد والمعلم قد غسلت ارجلكم فانتم يجب عليكم ان يغسل بعضكم ارجل بعض لانني اعطيتكم مثالاً ،، وفيها ايضاً قال لهم ،، وصية جديدة انا اعطيكم وهي ان تحبوا بعضكم بعضاً كما احببتكم انا · بهذا يعرف الجميع انكم تلاميذي»

وقد ترك هذا المساء في نفوس التلامذة اثراً شديداً · ولما حدثهم يسوع عن قرب تسليمه الى القضاة والكتبة والفريسيين قال تلامذته انهم سيتبعونه · فقال لهم بل انكم تتفرقون · فقال له بطرس بل اتبعك واضع نفسي مكانك فاجابه يسوع انك تنكرني قبل صياح الديك · فحلف انه يتبعه ولا ينكره وحلف جميع التلامذة معه

---

(١) « فغمس اللقمة واعطاها ليهوذا سمعان الاسخريوطي · ثم قال له يسوع ،، ما انت تعمله فاعمله باكثر سرعة ،، فظن السامعون ان يسوع قال له اشتر ما نحتاج اليه للعيد او ان يعطي شيئاً للفقراء ،، يوحنا ص ١٣ ع ٢٦

الفصل الواحد والعشرون

(القبض على يسوع)

في منزل حنانيا وقيافا · حكم المجمع · يسوع امام بيلاطس · تردد بيلاطس بينه وبين اليهود · مسئولية بيلاطس والاكليروس اليهودي · لا يجب ان تقع هذه المسئولية على كل اليهود · ألم تصنع الكنيسة المسيحية في الاضطهاد الديني ما صنعه اليهود

ولما خرج يسوع والتلامذة من مكان العشاء كان الليل قد اسدل ستائره فعبر يسوع وادي سدرون حسب العادة وذهب مع تلامذته الى بستان الجثمانية في سفح جبل الزيتون · ولما وصلوا الى البستان جلس يسوع يصلي ونام تلامذته بجانبه · وبينما هم في هذه الحال واذا بشرذمة من الجند قادمة على نور المشاعل · وكان هذا الجند من الجند اليهودي الذي يحرس الهيكل وسلاحه العصي وقد ترك الرومانيون لليهود استخدامه في اماكن العبادة · ولكن كان معهم ايضاً شرذمة اخرى من الجند الروماني المسلح بالسيوف · وكان في يدهم امر من رئيس الكهنة والمجمع بالقبض على يسوع · وكان يهوذا في صحبتهم وقد جاء يدلهم على المكان الذي يقيم فيه يسوع في الليل · وقد بلغت منه النذالة والجنون انه جعل تقبيله يد يسوع علامة بينه وبينهم ليعرفوه · ومما لا ريب فيه انه لما وصل الجنود حدث شيء من المقاومة بينهم وبين التلامذة · وروى الانجيلي يوحنا ان بطرس استل سيفاً وضرب به احد خدام رئيس الكهنة فقطع اذنه · اما يسوع فانه ابطل هذه المقاومة في الحال وسلم نفسه الى الجند · فعاد الجند به · واما التلامذة فانهم تفرقوا خوفاً من سلطة اليهود · ولم يتبعه منهم احد سوى بطرس ويوحنا فانهما تبعاه من بعيد · وتبعه تلميذ آخر قال عنه مرقص هذه العبارة « وتبعه شاب لابساً ازاراً على عريه فامسكه الشبان فترك الازار وهرب منهم عرياناً » ولعل هذا التلميذ هو مرقص نفسه

اما التهمة التي وُجهت الى يسوع وصدر الامر بمحاكمته من اجلها فهي تهمة « تضليل الشعب وافساد عقيدته ومخالفة الديانة اليهودية » وكان الرؤساء اذا راموا محاكمة المتهم بتضليل الشعب ومقاومة الشريعة اليهودية صنعوا في التحقيق صنعاً غريباً · فانهم يأتون بشاهدين ويخفونهما في مكان ثم يجيئون بالمتهم ويوقدون امامه شمعتين ليراه الشاهدان من مكنهما فلا يبقى لديهما شبهة فيه · ثم يسألونه عما اتهم به فيجيب ويجهر بما في نفسه والشاهدان يسمعان · فيطلب منه الرؤساء حينئذٍ تغيير معتقده فاذا اصرّ عليه اخذه الشاهدان الى

المحكمة وشهدا لديها عليه فحكم برجمه بالحجارة · وقد جاء في التلمود ان روءساء اليهود فعلوا هذه الفعلة ايضاً بالسيد المسيح وان الحكم الذي حُكم عليه لم يصدر الا بناء على شهادة شاهدين خفيين · غير ان الشريعة اليهودية لا تُجيز هذا الكمين الشنيع للمتهم الا في تهمة التضليل ومقاومة الشريعة دون سواها

ولما القي القبض على يسوع ذهب به الجند اولاً الى حنانيا الذي كان صاحب الكلمة العليا بين روءساء اليهود كما تقدم لان قيافا الرئيس الحقيقي كان صهراً له · فسأل حنانيا يسوع عن تعاليمه وتعاليم تلامذته · فقضت حينئذٍ عظمة النفس على يسوع بترك الدفاع عن نفسه · وانما ردّ حنانيا الى الذين سمعوا وعظه في الاجتماعات العمومية · فلما سمع احد الحاضرين هذا الجواب اعتبره اهانة لحنانيا فلطم يسوع بيده على خده

وقد ذكرنا آنفاً ان بطرس و يوحنا كانا يتبعان يسوع من بعيد · اما يوحنا فقد كان معروفاً في بيت حنانيا ولذلك استطاع الدخول اليه · واما بطرس فان حارسة الباب رامت منعه من الدخول · فجاء يوحنا وسألها ان تأذن له بالدخول فأذنت · وكان البرد شديداً في ذلك الليل فذهب بطرس الى نار موقدة واخذ يصطلي على حرارتها في جملة المصطلين · ولما اخذ يتكلم عرف السامعون من لهجته انه جليلي اي من بلاد الجليل ومن تلامذة يسوع · فسألوه وانت ايضاً من تلامذته · فانكر بطرس ذلك ثلاث مرات وقال انه لا يعرف يسوع ولا علاقة له به · ومما سهل له هذا الانكار ان يسوع لم يكن يسمعه · ولكن طبيعته الكريمة جعلته بعد حين يحس بالغلطة الكبيرة التي ارتكبها · فان الديك صاح في ذلك الحين · فاذكر بطرس صياحه كلام يسوع · فثارت لذلك نفس بطرس واضطربت فخرج من المنزل وبكى بكاء مرًّا

وبعد دخول السيد منزل حنانيا ارسله حنانيا الى صهره قيافا رئيس الكهنة · وقد تقدم ان قيافا كان آلة صماء في يد حنانيا · وكان المجمع معقوداً في دار قيافا · فلما جيء بيسوع تقدم عدة شهود من شهود الخفية الذين تقدم ذكرهم وشهدوا بان يسوع قال « انه يهدم الهيكل و يبنيه في ثلاثة ايام » وكان التجديف على الهيكل في الشريعة اليهودية بمثابة التجديف على الله · فسأله قيافا رئيس الكهنة هل قال ذلك القول · فلزم يسوع السكوت بعظمة وانفة · ذلك انه كان عالماً بان الروءساء قد قرروا الحكم عليه كيفما كانت الحال فلا يجدي الدفاع نفعاً · وكثيراً ما يكون السكوت في مثل هذا المقام ابلغ واسمى من الكلام

فلما سمع المجمع الشهود حكم باجماع الاصوات بثبوت ما اتهم به يسوع من رغبته في ابطال الدين اليهودي والشريعة اليهودية . ومتى ثبتت هذه التهمة فجزاء صاحبها الاعدام لا محالة . وكان في رؤساء المجمع بضعة يميلون الى يسوع فبعضهم غاب ولم يحضر الجلسة وبعضهم لم يعطِ صوتاً . وقد اصدر ذلك المجمع حكمه بطياشة وخفة لان الدماء كانت رخيصة في ذلك الزمان . ولم يكن المجمع عالماً بانه سيقدم حساباً عن ذلك الحكم الهائل للاجيال المستقبلة

ومتى اصدر المجمع حكماً كان تنفيذه منوطاً بالسلطة الرومانية . ومع ذلك فقد حسب الناس يسوع منذ تلك الساعة محكوماً عليه لاختلاط السلطات في اورشليم في ذلك العهد . ولذلك بقي تلك الليلة هدفاً لاعتداء جماعة من الاوباش اللئام الذين كانوا يبصقون في وجهه ويضربونه

وفي الصباح اجتمع رؤساء الكهنة ثانية وتشاوروا في رفع قرار المجمع الى بنطس بيلاطس حاكم اورشليم من قبل الرومانيين لانفاذه في يسوع . وكان شأن اليهود مع الرومانيين في ذلك الزمن شأن عرب الجزائر مع فرنسا اليوم او شأن المدن الهندية المقدسة مع الاحتلال الانكليزي او شأن دمشق الشام اذا احتلت سوريا احدى الدول الاوروبية . ومقتضى ذلك ان الرومانيين كانوا يحترمون ديانة اليهود ويجارونهم في جميع احكامهم اتقاء للفتن الدينية . وقد زعم يوسيفوس انه اذا تخطى احد من الرومانيين في الهيكل المكان المحرم على الوثنيين ان يخطوه اخذه الرومانيون انفسهم واسلموه الى اليهود لقتله . ولكن هذا القول لا يخلو من المبالغة

فبناء على ما تقدم امر الكهنة بشد وساق يسوع وساقوه الى دار الحكومة التي هي قصر هيرودس الكبير . وكان اليوم يوم جمعة (٣ ابريل) وفي مسائه يأكل اليهود طعام الفصح . فاذا دخل اليهود في هذا اليوم الى دار الحكومة تنجسوا من مخالطة الوثنيين (اي الرومانيين) وحرم عليهم اكل طعام الفصح في ذلك المساء . ولذلك لم يدخل اليهود حينئذٍ الى دار الحكومة بل اقاموا خارجاً . فلما سمع بيلاطس الحاكم الروماني بقدومهم صعد الى « البيما » وهي كلمة يونانية دخلت الى السريانية الكلدانية ومعناها « محكمة في الخلاء » . وكانت قائمة في المكان المدعو « جباثا » اي البلاط لان الارض كانت مبلطة فيه . ولما استخبر بيلاطس الخبر وعلم بالتهمة والحكم استاء من ادخالهم اياه في مسألة كهذه المسألة . ثم دعا يسوع وخلا به في دار الحكومة . وهناك جرى بينهما حديث لم نعرف بعد ذلك حقيقته

ولم يكن بنطس بيلاطس (١) قد شاهد قبل ذلك احداً من الطائفة المسيحية . ذلك لان هذا الوالي كان مبغضاً لليهود ولم يكن يهتم باضطراباتهم ومنازعاتهم الداخلية . وكان اليهود يبغضونه كما يبغضهم لانهم كانوا يرونه قاسياً شرساً محتقراً لهم ولذلك اتهموه تهماً شنعاء كما روى فيلون . وكانوا يعتقدون ان ذلك الحاكم اليوناني ينوي ابطال الشريعة اليهودية وانه يعمل لذلك سراً . اما بيلاطس فانه كان يستاء اشد استياء من التعصب والبغض والاضطهاد وغيرها من النقائص التي كان يلجاء اليهود اليها لان نفسه الرومانية التي الفت الحكومة المدنية كانت مشربة حب العدل كنفوس اصغر الرومانيين واكبرهم . واول قدومه الى اورشليم كان كلما رام ادخال اصلاح في ولايته من انشاء الطرق واقامة المباني كان يلقى الشريعة اليهودية في وجهه تقاومه وتمنعه كسد لا يجتازه احد مهما كانت تلك الاعمال نافعة وضرورية . ذلك ان هذه الشريعة كانت تضغط على حياة الامة ضغطاً يحول دون اقل تحسين او تغيير . وكان احداث الامور النافعة معتبراً فيها بمثابة ادخال بدع جديدة

وكان لبيلاطس منزل في جوار الهيكل ففي ذات يوم خطر له ان يضع فوق باب منزله شعاراً يدل على ان المنزل منزل والي المدينة . فلما وضع هذا الشعار (وكان شبيهاً بالالواح المكتوبة التي توضع اليوم على منازل القناصل والادارات الكبرى) هاج اليهود وماجوا كما روى فيلون . فاصرّ بيلاطس على وضع الشعار فثار اليهود عليه لاجباره بازالته . ثم نشأت عن ذلك فتن جرت فيها الدماء . فهذه الحادثة وامثالها جعلت بيلاطس كثير التأني في معاملة ذلك الشعب الغريب . وكان يسوءه ان يكون آلة لانفاذ تلك القسوة الشنيعة من اجل شريعة يكرهها كما روى يوسيفوس . ذلك لعلمه ان التعصب الديني اذا جعل الحكومات الدينية تعمل اعمالاً جائرة فانه يعود ويلقي تبعة تلك الاعمال عليها وحدها . وهو ظلم فاضح لان الجاني الحقيقي انما هو الذي اغرى بها وحرض عليها

وبناء على ذلك فان بيلاطس رغب في انقاذ يسوع . ولا ريب ان هدوء يسوع وثبات جأشه ولطف منظره قد اثرت في نفس الحاكم الروماني . وفضلاً عن ذلك فان زوجة بيلاطس كانت على ما يظهر قد اطلت في ذات يوم من شباك قصرها المشرف على

(١) بيلاطس كلمة لاتينية مأخوذة من « بيلوم » ومعناها « قوس الشرف » وهي وسام رفيع عند الرومانيين . وقد سمي بنطس (بيلاطس) نسبة الى هذه القوس التي نالها من الرومانيين هو او احد اجداده

ساحة الهيكل ولمحت منه يسوع فراقها هدوءه ولطفه وطهارته · ولما سمعت بان اليهود سيقتلونه ثقل على نفسها هذا الامر الفظيع فجاءها في الحلم ان تكلم زوجها في شأنه · ومهما يكن من هذا الامر فان الشيء الذي لا ريب فيه هو ان بيلاطس كان ذا ميل الى يسوع حين دخوله عليه

وكان كهنة اليهود قد حكموا على يسوع بالاعدام لانه قاوم تقاليدهم فلما دفعوه الى السلطة الرومانية لم يكتفوا بذكرهم مقاومته للدين اليهودي بل زادوا على ذلك انه سمى نفسه ملك اليهود وحرم دفع الجزية الى قيصر · ومعلوم ان يسوع لم يتلقب بذلك قط وانه كان يعترف بالسلطة الرومانية كما تقدم ويوجب دفع الجزية اليها · ولكن الاحزاب الاكليريكية التي تروم حفظ كيانها لا تُحجم عن الكذب والافتراء والنميمة لانفاذ اغراضها · وقد روى الانجيلي يوحنا ان بيلاطس سأَل يسوع : أَصحيح ما يقوله الكهنة · اما يسوع فانه وجد جوابًا جامعًا · فانه اجاب انه ملك ولكن مملكته ليست من هذا العالم وان مقتضى ملكه الحصول على الحق والنداء به · اما بيلاطس فانه لم يفهم شيئًا كثيرًا من هذا الكلام لان الرومانيين في ذلك العصر كانوا لا يهتمون بالمسائل الفلسفية والدينية وكانوا يرون الانتصار للحقيقة وتكريس النفس لها امرًا خياليًا لا شأْن له · فكان البحث في مثل هذه الامور يلقي الضجر والملل في نفوسهم · وكانوا يومئذٍ لا يرون ما هو مخبوء في الحميرة المسيحية من الخطر للامبراطورية الرومانية ولذلك لم يرَ بيلاطس ضررًا في انقاذ يسوع · وقد بقي الرومانيون حتى خراب اورشليم يعاملون اليهود هذه المعاملة اي عدم المداخلة في اضطراباتهم الداخلية

فخطر لبيلاطس خاطر ظنَّ به حلاً لهذه المشكلة · فقد جرت عادة الرومانيين في اورشليم ان يطلقوا للشعب في كل فصح سجينًا اكرامًا للعيد · وبما ان بيلاطس كان عالمًا بان يسوع لم يُقبض عليه الا لحسد الكهنة له حسب انه يُرضي الشعب باطلاقه لهم في ذلك العيد · فخرج بيلاطس من دار الحكومة الى البيما اي المحكمة في الخلاء واقترح على الشعب ان يطلق لهم في ذلك العيد « ملك اليهود » · وقد دعاه بيلاطس ملك اليهود ليظهر للشعب انه غير مهتم له · اما الكهنة فلما سمعوا ذلك خافوا عاقبة هذا الاقتراح فاندفعوا يغرون الشعب ويحرضونه على طلب (برابا) بدلاً من « ملك اليهود » · وكان برابا رجلاً مشهورًا عند الشعب وقد قبض عليه الرومانيون وسجنوه لاشتراكه في فتنة حدثت في المدينة مقرونة بسفك دماء · فلما سمع الشعب اقتراح بيلاطس وكان قد اثر فيه اغراء الكهنة صاح « لا نريد هذا ولكننا

نزيد برابا » فاضطر بيلاطس في ذلك اليوم ان يطلق برابا

ولكن المشكلة ازدادت بذلك تعقداً في عينيه . وخشي اذا بالغ في الرفق بيسوع ان يُتهم بمجاملة رجل يزعم نفسه ملك اليهود وهذا مما يلقي عليه في رومه شبهة سياسية عقيمة . ولا عجب ان يجول هذا الامر في فكر بيلاطس فان كل سلطة في العالم مضطرة الى مسالمة المتعصب والمتعصبين . ولذلك ظن هذا الوالي انه يلزمه ان يصنع شيئاً . وبما انه كان يكره سفك الدماء ارضاء لاناس يكرههم فقد خطر له ان يجعل للمسألة شكلاً مضحكاً لعل ذلك يطرف حقد الحاقدين وغضبهم . فجاء بيسوع وامر بجلده . وكان الجلد في العادة مقدمة للصلب . وربما كان قد خطر لبيلاطس ان يوهم الكهنة بانه عزم على صلب يسوع ارضاء لهم . ثم يكتفي بالجلد دون الصلب حين رضائهم

وحينئذٍ حادث حدث فظيع تنفطر له المرائر وتدمى القلب . فان بعضاً من الجنود جاءوا بثوب قرمزي فجعلوه على هامة يسوع ثم وضعوا على رأسه اكليلاً من شوك وجعلوا في يده قصبة واخذوه بعد ذلك الى منبر عالٍ منصوب امام الشعب . ثم صار الجنود يمرون امامه فيجثون لدى المنبر على سبيل التهكم ويلطمون يسوع على خديه ويبصقون في وجهه ويضربونه بالقصبة وهم يقولون متهكمين (السلام ياملك اليهود) — وانه من الصعب ان يصدق الانسان ان الجنود الرومانية المشهورة بالرزانة وسكون الجأش تأتي عملاً سافلاً فظيعاً كهذا . ولكنه ثبت ان الجنود التي كانت لدى بيلاطس لم تكن الا من الجنود الاضافية المساعدة التي يستعملها الرومانيون لحاجاتهم . ولو كانت تلك الجنود من افراد الرومانيين الحقيقيين لما نزلوا الى هذه الدرجة من الدناءة والسفالة

وقد ذكرنا ان بيلاطس امر بان يُفعل هذا الفعل في يسوع اخماداً لحقد اليهود ورغبةً في حل تلك المشكلة حلاً هزلياً بدلاً من حلها حلاً دموياً . ولكنه يظهر ان هذا لم يُرضهم قطعياً . فان دعاة الفتنة ازدادوا زئيراً ونعيراً وصاروا يصرخون « فليصلب فليصلب » . وازداد الكهنة ايضاً شدة في طلب ذبح الحمل الوديع . فوجد بيلاطس انه لا يستطيع انقاذ يسوع الا اذا جرد جنده وقمع به فتنة تلك الغوغاء . ومع ذلك فانه حاول تاجيل الامر لعل في الاطالة افادة . فدخل ثانية الى دار الولاية وسأل عن يسوع من اي بلد هو ليحتج بذلك ويرسله الى والي بلده . وقد روي انه لما علم انه من الجليل ارسله الى انتيباس والي تلك البلاد وكان يومئذٍ في اورشليم وقد جاء للحج . اما يسوع فانه لم يساعد بيلاطس في سعيه في انقاذه بل كان ملتزماً الرصانة والسكوت التزاماً ادهش

بيلاطس . وفي اثناء ذلك اشتد صخب الشعب في الخارج وكثر صراخ الصارخين ضد اهمال بيلاطس . واخذ دعاة الفتنة يتهمون هذا الوالي الروماني بحماية عدو قيصر . وبذلك جعل اولئك اليهود انفسهم من اكثر الناس دعوة الى طاعة القيصر طباريوس مع انهم كانوا من الد اعداء حكمه . وكانوا يقولون « ليس لنا ملك الا قيصر وكل من يزعم انه ملك فهو ضد قيصر . فاذا كان الوالي يطلق هذا الرجل فهو لا يحب قيصر » فلم يستطع حينئذ بيلاطس الضعيف الرأي ان يثبت على رأيه بعد هذا الكلام . لانه علم منذ تلك الساعة ان اعداءه يغتنمون هذه الفرصة ويرسلون الى رومه تقارير سياسية ضده ويتهمونه بانه يدافع عن اعداء الامبراطور . وقد اختبر بيلاطس اليهود في مسألة الشعار التي تقدم ذكرها فوجد انهم خاطبوا رومه في شأنها وتغلبوا عليه فيها . وكان هذا الوالي حريصاً على منصبه فلم يرَ بدّاً من الاذعان لليهود . ولكنه يقال انه القى عليهم تبعة ذلك الحادث حين تسليمه فاجابوه « فليقع دمه علينا وعلى اولادنا »

ومما لا ريب فيه ان ذلك الوالي الروماني لم يكن قادراً على ان يصنع شيئاً غير ما صنعه لان الرومانيين كانوا قد اتخذوا مسالمة اليهود خطة لهم اتقاء للفتن والثورات . وما دروا ان هذه المسالمة ستكون باعثاً على تجريئهم عليهم وقيامهم الى الفتن والثورات . ولا عجب فان السلطات الدينية متى كانت لها سيادة او قوة على الحكومات المدنية فانها تدفعها الى سفك الدماء . وليس من الصعب ان تقول ان ملك اسبانيا الذي كان يُسلم الى النار مئات من رعيته بناء على اغراء الاكليروس لهو اعظم ذنباً من بيلاطس . ذلك ان سلطة هذا الوالي كانت في اورشليم ناقصة فكان عاجزاً عن انفاذها . واما ملك اسبانيا فان البلاد بلاده وكانت سلطته كاملة فيها . ولكن قد يطرأ على الحكومات ضعف يجعلها تضطهد الناس من اجل الاكليروس . واذا كان في هذه الحكومات واحدة عارية عن هذه الوصمة فلا نرم بيلاطس بحجر . وليس الجاني في حال كهذه الحال اليد التي تضرب ولكن الارادة الاكليريكية التي تختبئ وراءها . وليس لاحد ان يدعي انه يكره سفك الدماء اذا كان يحرض على اهراقها

فليس الذي قضى بقتل يسوع اذاً هو طباريوس او بيلاطس وانما هو الحزب اليهودي القديم اي الشريعة اليهودية نفسها . غير ان الافكار العصرية توجب عدم انتقال الذنوب من الابناء الى الآباء لان كل انسان لا يُسأل لدى عدالة الله والناس الا عن الاعمال التي يكون قد عملها بنفسه . فبناء عليه لا يجب ان يحمل اليوم كل الاسرائيليين تبعة ذلك العمل الفظيع . وهب ان اليهود يجب ان يحملوا اليوم هذه التبعة فما ادرانا ان الذي تكلمه

اليوم منهم لو عاش في ذلك الزمان لما دخل بين الذين كانوا يصيحون حول دار الحكومة « اصلبه اصلبه » . بل ما ادرانا انه لا يكون سمعان القيرواني الذي حمل عن يسوع صليبه . ولكن مع اعتبارنا هذا الامر لا يسعنا الا ان نقول ان مسئولية الشعب تختلف عن مسئولية الافراد . واذا كان في العالم جناية تسمى (جناية امة) فهي هذه الجناية . لان يسوع لم يُصلب الا بقضاء من الشريعة اليهودية نفسها . وقد قال الكهنة ذلك لوالي الرومان قولاً صريحاً . فانهم قالوا (لنا شريعة وهذه الشريعة توجب موته لانه جعل نفسه ابن الله) " يوحنا الاصحاح ١٩ العدد ٧ " ذلك ان هذه الشريعة كانت توجب قتل كل من يحاول تغيير الدين او مقاومته . وهي شريعة كريهة واثر من آثار الوحشية الماضية . ولقد قدر على يسوع الذي جاء لالغائها ان يموت بها

ولكن واأسفاه كم من قرن ينبغي ان يمرّ قبل ان تثمر تلك الدماء الزكية الثمار التي سُفكت من اجلها . ينبغي ان يمر ١٨ قرناً للوصول الى شيء من النتيجة . وفي اثناء هذه القرون الطوال كم قد قُبض على الفلاسفة والعلماء باسم يسوع وعُذبوا ايضاً . حتى في هذا العصر لا يزال في بعض البلاد التي تسمي نفسها بلاداً متمدنة عقوبات للذين يخالفون التقاليد الدينية ويرتئون آراء مخالفة لآراء غيرهم . فليتهم يعلمون ان يسوع ما جاء الى الارض ليعلّم الناس ان يجعلوه " مولوخاً " (١) يحبّ رائحة الدماء واللحم البشري ولكن ليعلمهم المحبة والعدل والاخاء والسلام والصفح والاعتدال . ولقد وقعت الديانة المسيحية في التعصب في بعض الازمان ولكن وقوعها فيه كان امراً طارئاً ثم زال لان التعصب والديانة المسيحية الحقيقية نقيضان لا يجتمعان . وانما التعصب ثمرة يهودية بدليل ان الشريعة اليهودية كانت اول شريعة في العالم وضعت اساس العصمة والحقيقة المطلقة وقضت بلا بحث ولا محاكمة برجم كل من يخالفها ولو ايد قوله بصنع العجائب . ولا ريب ان الشعوب الوثنية كانت على شيء كثير من التعصب ولكن تعصبها لم يبلغ حد تعصب اليهود بدليل انها لو كانت متعصبة الى ذلك الحد لما كانت اعتنقت الديانة المسيحية . فالديانة اليهودية كانت عبارة عن قواعد راسخة كالجبال لا يجب ان يزعزعها شيء او يُعترض عليها بشيء . وفوقها سيف لحمايتها . فلو ان الديانة المسيحية بدلاً من مطاردة اليهود وبغضها اياهم بغضاً اعمى الغت تلك القواعد والمبادىء التي ضُحي بها صاحب شريعتها لكان عملها هذا اكثر انطباقاً على اصل نشأتها وكانت اعظم فضلاً على الانسانية

(١) اله الكنعانيين والفينيقيين او هو الاله بعل نفسه وكانوا يقدمون له الضحايا البشرية

الفصل الثاني والعشرون

(صلب يسوع)

الجنود الرومانيون والصلب · سيدات اورشليم والخمر لتخدير المصلوبين · طريقة الصلب القديمة · فرار الرجال وامتياز النساء · الصلب غير مميت عطش الصلب · انطفاء النور الالهي

وقد تقدم ان كهنة اليهود لم يسلموا يسوع الى بيلاطس الا بتهمة سياسية مقتضاها انه يقاوم قيصر والامبراطورية الرومانية · ولو كانوا سلموه اليه بحجة دينية لما كان ذلك الوالي الذي كان لا يؤمن بشيء يجاريهم على هواهم · ولذلك جعل الكهنة يحرضون الشعب على طلب صلب يسوع لان الصلب جزاء الجرائم السياسية · اما الجرائم الدينية فقد كان جزاؤها عند اليهود الرجم بالحجارة ثم الشنق بعد الرجم في اكثر الاحيان · ولعل ذلك سبب ما جاء في التلمود من ان اليهود رجموا يسوع اولاً ثم شنقوه · وهو خطأ لان يسوع لم يرجم ولكن صُلب صلباً

وقد روى تاسيت ان الجنود الرومانية كانت تقوم في ذلك الزمن مقام الجلادين في اعدام المتهمين السياسيين · فدُفع يسوع اذاً الى شرذمة من الجند يقودها قائد مائة · وحينئذٍ بدأوا بالعمل الهائل الفظيع الذي عزموا عليه · ارتجفي ايتها الارض وارتعدي ايتها السماء فان الصالح الذي لا عيب فيه قد دُفع للصلب كاحد المجرمين

وكان الوقت منتصف النهار · وكان في السجن لصان حُكم عليهما بالصلب · فأُلبس يسوع ثيابه التي كانت قد نُزعت عنه من قبل حين عرضه على المنبر امام الشعب · ثم سيق الى مكان الاعدام مع الاثنين اللذين تقدم ذكرهما

وهكذا عُلق الابن الصالح الذي ارسلته العناية الالهية ليخلص البشر وينقذ الارض من الغباوة وفظاعة الوثنية — في وسط اللصوص الذين يعيثون في الارض ويُفسدون

وكان مكان الاعدام يُدعى « الجلجثة » وهو كائن في الجانب الشمالي او الشمال الغربي خارج المدينة قريباً من سورها · ومعنى « الجلجثة » « الجمجمة » وربما سمي ذلك المكان كذلك لكونه اكمة شبيهة بجمجمة الانسان

وكان يجب على المحكوم عليه بالصلب ان يحمل بنفسه صليبه · ولكن جسد يسوع كان ضعيفاً لا يقدر على ثقل الصليب · وكان محرماً على الجنود الرومانية ان تحمل

صليب المحكوم عليه لان ذلك يحط من شأنها . فاتفق انه مرَّ حينئذ رجل يُدعى سمعان القيرواني فجعله الجنود يحمل صليب يسوع . ولم يكن بجانب يسوع في هذه الساعة احد من التلامذة

ولما وصلوا الى مكان الاعدام قدموا اولاً الى الثلاثة خمرًا شديدة الفعل . ذلك انهم كانوا يقدمون هذه الخمر الى جميع المحكوم عليهم قبل انفاذ الحكم وذلك كما روى التلمود لتخدير حواسهم على سبيل الرفق بهم لئلا يشعروا بعذاب شديد . وقد روى التلمود ايضًا ان سيدات اورشليم كن يبتعن هذه الخمر من مالهن ويقدمنها لهذا الغرض . واذا رام الرومانيون صلب احد ولم تقدم له واحدة من النساء خمرًا فان الخمر تُبتاع حينئذ من مال الحكومة . فلما قدم الجنود الخمر الى يسوع ذاقها ثم اعاد الكاس دون ان يشربها . ولا عجب فان هذا المخدر قد جُعل للنفوس الصغيرة التي لا تقوى على احتمال العذاب . اما النفوس الكبيرة فانها تود استقبال الموت وهي ممتلكة جميع حواسها وقواها

ثم ان الجنود دنت من يسوع ونزعت عنه ملابسه . وكان الصليب مؤلفًا من جذعين على شكل الحرف T . ولم يكن مرتفعًا كثيرًا لان قدمي المصلوب كانتا تمسان الارض . فاخذه الجنود ونصبوه في الارض . وكانت العادة ان يسمروا يدي المصلوب في الصليب بمسامير واما قدماه فاحيانًا يسمرونها بمسامير واحيانًا يربطونها بحبل . وكانوا يأخذون ايضًا قطعة من خشب ويسمرونها في وسط الصليب بين ساقي المصلوب لتحول دون تمزق يديه وسقوط جسمه عن الصليب . واحيانًا يضعون تحت قدميه افقيًا لوحًا يسند رجليه ويمنع سقوطه

ولما فرغ الجنود من إعداد الصليب ادنوا يسوع منه وصلبوه عليه كما تقدم . فذاق يسوع كل هذه الآلام الهائلة . وكان صليبه بين صليبي اللصين . وبعد الصلب جلس الحراس بجانب الصلبان ينظرون الى المصلوبين بعد ان اقتسموا ثيابهم . ففتح يسوع حينئذ فاه الكريم وهو على الصليب بعد سكوته الطويل وقال " يا ابتاه اغفر لهم لانهم لا يعلمون ما ذا يصنعون "

وكانت جرت العادة عند الرومانيين ان يعلقوا كتابة على كل صليب . فعلقوا هذه المرة على صليب يسوع كتابة باللغة العبرانية واليونانية واللاتينية هذه ترجمتها " ملك اليهود " وربما حمل الجنود هذه الكتابة امام يسوع في طريقهم الى الجلجثة . اما اليهود فلما دروا بهذه الكتابة رأوا فيها اهانة لهم لانهم كانوا يؤملون عودة الملك اليهم فجاء كهنتهم الى

بيلاطس وقالوا له « لا تكتب ملك اليهود ولكن هو قال انه ملك اليهود » (يوحنا اصحاح ١٩ عدد ٢١) وكان بيلاطس قد ضجر منهم ومن كثرة طلباتهم فلم يسمع لهم

اما التلامذة فانهم تركوا يسوع ولجئوا الى الفرار كما ذكر جوستينوس . ولكن يوحنا يقول انه بقي هو نفسه مقيماً بجانب الصليب . ومما لا ريب فيه ان النساء الجليليات اللواتي تبعن يسوع الى اورشليم قد تبعنه الى الجلجثة ايضاً ولم يتركنه (١) وهؤلاء النسوة هن العذراء امه ومريم اختها ومريم المجدلية وصالومه وغيرهن . ويقول الانجيلي يوحنا انهن كن واقفات بجانب الصليب . واما الانجيليون الآخرون فيقولون انهن كن ينظرن اليه من بعيد

ولكن ما عدا هؤلاء النسوة الكريمات لم يكن امام يسوع وهو على الصليب سوى مناظر الدناءة والهمجية البشرية . فانه كان يسمع حوله التهكم والشماتة من كل صوب . فمن قائل « يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة ايام خلص نفسك » ومن قائل « خلص آخرين واما نفسه فما يقدر ان يخلصها . ان كنت ملك اسرائيل فانزل عن الصليب لنؤمن بك » وغيره كان يقول « قد قال انه ابن الله واتكل على الله فلينقذه الله لنرى » (متى ص ٢٧ ع ٤٠ ومرقص ص ١٥ ع ٢٩)

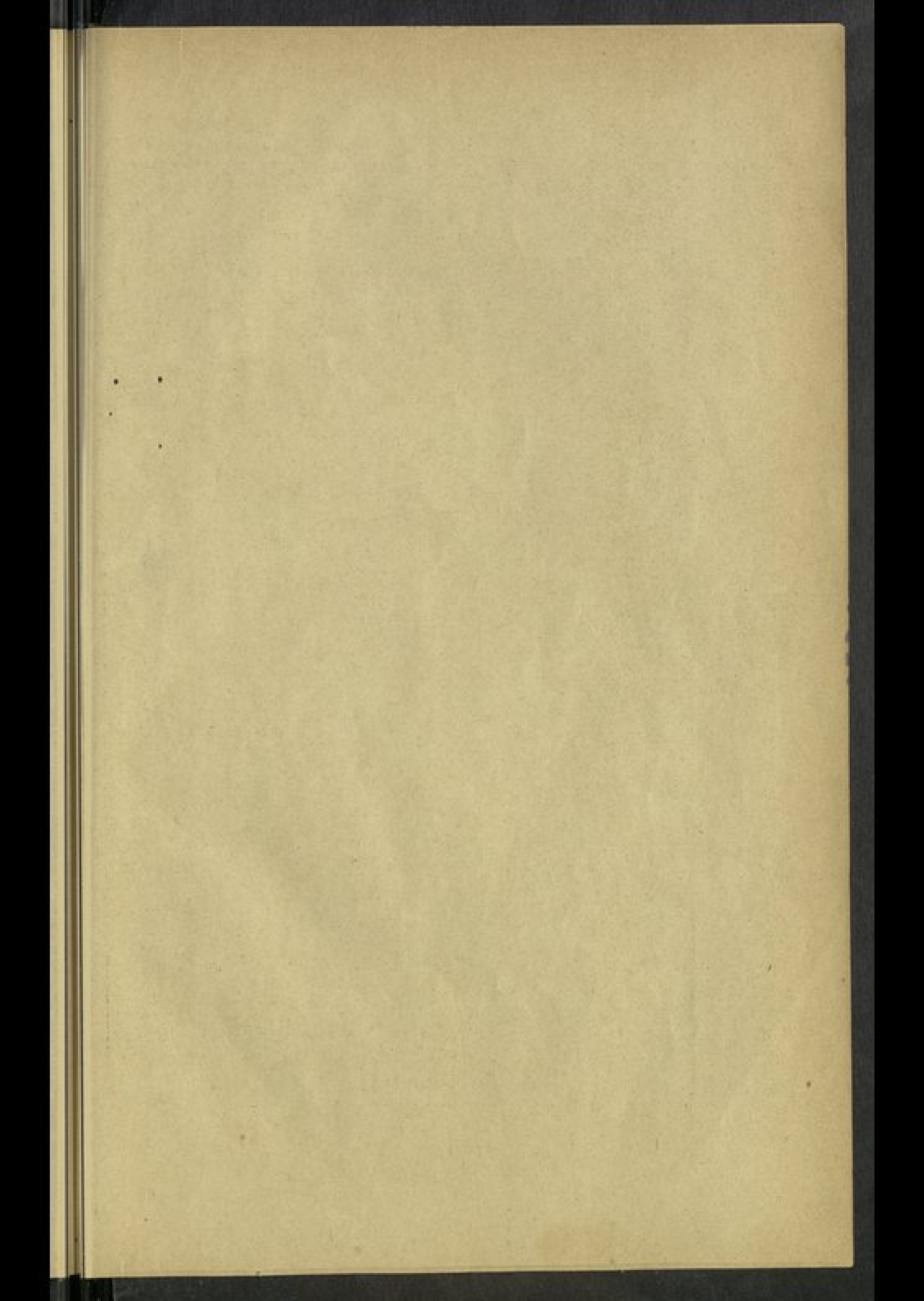
وكانت السماء حينئذ سوداء من الغيوم الملبدة في وجهها والارض في تلك الجهات قاحلة مجدبة . فكأن انحجاب السماء عن وجه ابن السماء اثار في الطبيعة البشرية شكاً وارتياباً . فحسب انه يتعذب ويسفك دمه الذكي من اجل جنس دنيء لا يثمر ذلك الدم فيه . فالتفت حينئذ الى ابيه وقال « الهي الهي لماذا تركتني » ولكن هذا اليأس الوقتي لم يلبث ان انقشع عن نفسه وعادت اليه عواطف الواجب الذي جاء من اجله . فرأى من الخشبة التي كان عليها ان موته سيخلص العالم ويحييه وينشر الكرازة والبشارة باسمه في جميع اقطار الارض . ومنذ تلك الساعة بدأت حياته الالهية مع ابيه تلك الحياة التي مرت عليها القرون الطوال وهي في صميم قلب الانسانية

---

(١) وفي ذلك قال لويس مينار قولاً اراد به اظهار اخلاص النساء ورقة عواطفهن وشدة تاثيرهن في المجتمع البشري وهو : ان يسوع اسلم الى الموت من احد تلامذته وانكر من تلميذ آخر وترك وهجر من الجميع الا النساء فانه وجدهن يبكين على طريقه وهو صاعد الى الجلجثة »



النسوة والتلامذة ينزلون يسوع عن الصليب



وكان من اشد عذابات الصلب ان المصلوب يعيش على الصليب ثلاثة او اربعة ايام وهو في تلك الحالة . ذلك ان الصلب غير مميت بحد ذاته لان الجروح التي تحدث في القدمين واليدين بسبب المسامير سهلة الشفاء . وانما الصلب يُحدث في المصلوب خللاً شديداً في الدورة الدموية لقيام الجسم قياماً غير طبيعي وقتاً طويلاً ناشئاً عن ذلك صداع شديد لا يُحتمل ويعقبه الموت . وكان غرض الرومانيين من صلب المجرمين تشهيرهم وترك اجسادهم تبلى على الخشبة عبرة للناس لا قتلهم . ولذلك كان كثيرون من المصلوبين الاقوياء الاشداء ينامون وينتبهون على الصليب عدة ايام ولا يموتون الا من الجوع

ومن نواميس الصلب انه يثير في النفس ظمأً شديداً . فعطش يسوع وطلب ماء . وكان هنالك اناء مملوءٌ من شراب الجنود المألوف وهو مركب من ماء وخل ويسمي الرومانيون هذا الشراب « بوسكا » . وكان يجب على الجنود الرومانية ان تحمل هذا الشراب في كل البعثات والحملات وفي جملة ذلك بعثة الاعدام . فقام احد هولاء الجنود وتناول قصبة فوضع على طرفها اسفنجة ثم غطسها في وعاء الخل والماء وادناها من شفتي السيد . فامتصها يسوع . وبعد ذلك احنى راسه الكريم على صدره وقال (يا ابتاه . في يديك استودع روحي) واسلم الروح

فالآن قد تمّ كل شيء . قد تمّ العمل العظيم الذي ستبني عليه الانسانية . وقد وُضعت الديانة الابدية بعذاب لم يتجاوز بضع ساعات . وواضعها العظيم ينظر الآن من علو مجده الالهي الى هذه الكرمة التي غرسها . كرمة مبنية على الدفاع عن الحق والاستمانة في سبيله وعبادة الله عبادة روحية وصنع الخير والمحبة والفضيلة والايمان وحب الفقر والرحمة . وستمر القرون والاجيال والعالم تابع له وطا . اما اسمه فانه يكون الراية الكبرى التي تدور حولها رحى اعظم حرب قامت بها الانسانية . وسيكون هذا الاسم الكريم محبوباً بعد هذه الحادثة الف مرة اكثر مما كان يوم مرور صاحبه في هذه الدنيا . بل انه يكون حجر الزاوية في بناء الانسانية حتى ان من يحاول نزعه منه يزعزع الانسانية من اساسها

الفصل الثالث والعشرون

(نتيجة عمل يسوع) (١)

فيتضح مما تقدم ان يسوع لم يخرج عن دائرة اليهودية في حياته . نعم انه كان يعاشر الوثنيين ويقبلهم في ملكوت الله الا ان حياته كلها صرفت في البلاد التي ولد فيها . فان بلاد اليونان والرومان لم تسمع به . ولم يرد ذكر اسمه في كتب المؤلفين الا بعد مرور مائة سنة عند كلامهم على تاريخ الفتن التي كانت تحدث لتعاليم تلامذته . حتى في اليهودية نفسها لم يحدث يسوع تأثيراً عظيماً . فان الفيلسوف فيلون الذي توفي في سنة ٥٠ للميلاد لم يعلم به . والمؤرخ يوسيفوس الذي ولد في سنة ٣٧ والف مؤلفاته في اواخر القرن لم يذكر صلبه الا في بضعة اسطر كأنه امر ثانوي . ولما احصى الفرق والمذاهب في عصره لم يحص فيها « المسيحيين » . ومن جهة اخرى فان كتاب « المشنا » لم يرد فيه ذكر للمذهب الجديد . وما ورد في « الجمارة » عن يسوع يرجع الى ما بعد القرن الرابع والخامس

على ان العمل العظيم الذي عمله يسوع جعل تلامذته يحبونه « في حياته وبعد مماته » كما قال يوسيفوس . وهذا ما جعل اهل ذلك العصر يعجبون منه . اما تعاليمه فلم تكن تبنى على قواعد خصوصية وعقائد مقررة ولذلك لم يخطر له في بال ان يكتبها او يستكتبها . وكل من رام ان يكون تلميذاً له لم يكن يطلب منه ان يعتقد بهذا الامر او بذاك بل كان يكفي ان يحبه ويتبعه . ولذلك لم يبق من اثر يدل عليه سوى الحكم والخطب التي جمعت بعده ومثاله الادبي والتأثير الذي احدثه في نفوس تلامذته . فلم يكن يسوع اذاً مؤسس عقائد واسرار بل داعية يدعو العالم الى روح جديد . واول الناس مسيحية هم من جهة علماء الكنيسة اليونانية الذين ادخلوا الكنيسة منذ بدء القرن الرابع في تيه المناقشات الدينية التافهة ومن جهة اخرى علماء السكولاستيك اللاتين الذين رأوا ان يستخرجوا من الانجيل الوفاً من المواد التي سطروها في الخلاصة اللاهوتية . وكل هذا ليس بالمسيحية اذ المسيحية كانت في عصر يسوع اتباعه اتباعاً مجرداً لانتظار ملكوت الله

وبناء على هذا يمكن الآن ان نفهم السبب الذي من اجله تقدر المسيحية بعد مرور

(١) هذا الفصل منقول حرفياً لا تلخيصاً وهو اهم وابلغ فصول الكتاب

١٩ قرناً عليها ان تكون ديانة عمومية ابدية . ذلك لان ديانة يسوع هي من عدة وجوه الديانة النهائية . فان يسوع نادى بحق كل انسان ان يشترك في ملكوت الله «١» ومن فضله صارت الضمائر البشرية خارجة عن سلطة الشريعة السياسية والّفت لنفسها سلطة جديدة وهي «السلطة الروحية» . نعم ان هذه السلطة قد خانت اصلها غير مرة فجعل الاساقفة انفسهم امراء عدة قرون وعدّ البابا ملكاً . وقد صدر عن هذه المملكة الروحية في عدة احوال ظلم قبيح واتخذت عذاب التنكيل ونار الحرائق وسيلة لتأييد نفسها . الا انه سيأتي يوم يتم فيه الانفصال بينها وبين السلطة المدنية تماماً جيداً فتنفض عنها اسم «السلطة» وتسمى حينئذٍ «الحرية» . فان الديانة المسيحية التي فاضت من ضمير فرد من افراد الشعب وانتشرت بين الشعب وبالشعب واحبها واعجب بها الشعب قد كان لها صبغة خصوصية لا تمحى ابداً . فهي كانت عبارة عن اول نصر للثورة وفوز للعواطف الشعبية وبلوغ اصفياء القلوب والسذج عرش السيادة وافتتاح مملكة الجمال كما يفهمها الشعب الذي انشأها . وبهذا فتح يسوع في الهيئات الاجتماع الارستوقراطية القديمة الثغرة التي ستهدم ذلك البناء . وكل شيء يرممها

واذا كانت الديانة المسيحية حين نشأتها عبارة عن حركة نفوس اختيارية منزهة عن كل عقيدة تضغط عليها وقد اقامت ثلاثة قرون تمارك وتقاوم تحرير الضمائر ومن اجل هذا لاتزال حتى اليوم مع ما طرأ عليها من الطوارىء تجني ثمار هذا الاصل الكريم . ورغبة في تجديدها واحيائها لا يلزمها غير الرجوع الى الانجيل . وان ملكوت الله كما نفهمه نحن يختلف اختلافاً شديداً عما كان يعتقد به المسيحيون الاولون الذين كانوا يعتبرونه عبارة عن حادثة تحدث من وراء الغيوم الا ان العاطفة التي ادخلها يسوع الى العالم هي عاطفتنا بلا شك . فان كماله الفكري Idéalisme لهو اسمى قواعد الحياة الفاضلة المنزهة عن الدنايا الارضية . فلقد خلق السماء النقية التي لا نجدها النفوس النقية في الارض اينما طلبتها والقداسة المطلقة والنزاهة التامة عن كل دنية والحرية المطلقة التي تعتبرها كل هيئة اجتماعية امراً مستحيلاً والتي لا يمكن اطلاقها الا في عالم الفكر . وان يسوع كان كبير معلمي هذه المملكة الالهية الفكرية ولا يزال كذلك الى اليوم . فانه اول من نادى بسلطان الروح والفكر واول من قال (ان لم يكن بكلامه فبفعله) «مملكتي ليست من هذا العالم» وان تأسيس الديانة الحقة كان من فعله ولا شك . ولم تبق بعده حاجة لغير التكميل والتتميم

وهكذا اصبحت تقريباً كلمة «مسيحية» مرادفة لكلمة «ديانة» . وصار كل ما يفعل

«١» هذا بمثابة اعلان (حقوق الانسان) قبل ان تعلنها الثورة الفرنسوية

خارج هذا التقليد المسيحي العظيم شيئاً عقيماً . فكان يسوع مؤسساً لديانة الانسانية كما كان سقراط مؤسساً للفلسفة وارسطو مؤسساً للعلم الطبيعي . نعم قد وجدت الفلسفة قبل سقراط والعلم قبل ارسطو ومنذ ذلك الحين الى اليوم تقدمت الفلسفة والعلم تقدماً عظيماً الاّ ان كل تقدم وارتقاء فيهما كان على الاساس الذي وضعه سقراط وارسطو لها . وكذلك الشان في يسوع . فان الفكرة الدينية قد اجتازت ثورات عديدة قبله . ومن عصره الى اليوم قد ارتقت وتقدمت ولكنها لم تخرج ولن تخرج عن القاعدة الاصلية التي خلقها يسوع لها . فانه وضع في الارض الى الابد فكرة العبادة النقية . ومن هذا الوجه ليس لديانة يسوع حدٌّ تقف عنده . نعم انه كان للكنيسة ازمنة وعصور خصوصية حبست نفسها فيها ضمن رموز واسرار مختلفة ولكن هذا امر سيزول . لان الديانة التي وضعها يسوع هي الديانة المطلقة التي لا تنبذ شيئاً ولا تقرر شيئاً غير نقاء العواطف . وليست رموزها بعقائد مقررة بل هي صور مختلفة تقبل تاويلات مختلفة . وفي الحقيقة اننا مهما فتشنا الانجيل فاننا لا نجد فيه تقرير عقيدة لاهوتية وكل ما فيه من المعتقدات مقتبس من افكار يسوع ومؤوَّل تأويلاً . فكان شان يسوع مع تلامذته كشان ارسطو مع علماء السكولاستيك . فان هؤلاء باعلانهم ان ارسطو هو المعلم الوحيد وان العلم الذي وضعه علم كامل لا ينقصه شيء قد ناقضوا فكر ارسطو نفسه . ولو شهد ارسطو مجادلاتهم وسمع قولهم هذا لنبذ هذا التعليم الضيق وكان في جانب خصومهم اي في جانب العلم التدريجي الذي ينكر التقليد الاعمى لا سيما وانه يبني هذا التقليد على سلطته . بل انه كان يصفق استحساناً لاقوال معارضيه ومجادليه متى رآهم قد اصابوا . وهكذا يسوع . فانه لو عاد الينا اليوم فانه لا يعتبر من تلامذته اولئك الذين يرومون حبس فكره في بضع عبارات يسطرونها في كتاب (مبادىء التعليم المسيحي) بل اولئك الذين يحذون حذوه ويكملون فعله في عالمي الروح والفكر

وان المجد العظيم لكل ذي مجد ان يكون قد وضع الحجر الاساسي الاول . فليس بعيد ان لا يوجد اليوم في كتب العلم كلمة مما قاله ارسطو ولكن ارسطو مع ذلك سيبقى معدوداً مؤسس العلم . وكذلك يسوع فانه مهما تغيرت العقائد والافكار سيكون الى الابد معدوداً في الدين مؤسس (العواطف النقية) . فان خطبته على الجبل لا يفوقها شيء في المستقبل ابداً . وكل الثورات التي تحدث في الارض لا يمكن ان تمنعنا من ان يكون لنا اتصال في الدين بذلك السلك الفكري العظيم الذي يسطع في مقدمته يسوع سطوع القمر المنير . ومن هذا الوجه نحن مسيحيون حتى ولو افترقنا في جميع الامور تقريباً عن التقليد

المسيحي الذي تقدمنا

وهذا البناء العظيم بناه يسوع وحده . فان تلامذته لم يحبوه ذلك الحب العظيم الا لجاذبية شخصه . فان الحب لا يحدث بلا سبب موجب له . ولو لم نعلم شيئاً عن يسوع سوى ذلك الحب الشديد الذي جذب به تلامذته اليه لكفى ذلك برهاناً على عظمته ونقائه . فان ايمان الجيل المسيحي الاول وحماسته وثباته في ايمانه — كلها امور غير مفهومة الا اذا افترض هناك في اصل الحركة وجود شخص متناهٍ في العظمة والقوة

فلنضمن اذاً شخص يسوع في اعلى قمة العظمة البشرية . ولا ندع لمبالغات المبالغين سبيلاً لان نتيه افكارنا بحجة ان ذلك التاريخ فوق طور العقل البشري فان حياة فرنسوى داسيز لم تكن سوى سلسلة معجزات فهل انتفى ذلك الشك في وجوده . ثم لا نزعمن ان الفضل في تاسيس المسيحية عائد للتلامذة فانه ظاهر كالشمس ان يسوع كان اعلى منهم في كل شيء . فانهم ما عدا بولس وربما يوحنا الانجيلي ايضاً كانوا قوماً سذجاً بلا فكر . حتى بولس نفسه لا شبه بينه وبين يسوع . وهذا هو السبب في فضل الاناجيل على باقي كتب « العهد الجديد » والعلة في الخيبة التي يقع فيها القارىء متى انتقل من مطالعة تاريخ يسوع الى مطالعة تاريخ تلامذته . وان كتبة الاناجيل انفسهم الذين رسموا لنا صورة يسوع كانوا دون صاحب الترجمة بمراحل حتى انهم لعدم وصولهم الى علوه كانوا كثيراً ما لا يحسنون التعبير عن افكاره . ففي كتاباتهم كثير من الخطاء والمتناقضات . وفي كل سطر منها يشعر القارىء بان هناك جمالاً مخبأ ولكن الكاتب لا يحسن ترجمته وابرازه لانه لا يفهمه ولذلك يبدله بفكره الخاص . وجملة الكلام ان تلامذة يسوع قد اضعفوا جمال صورته بدل ان يزيدوها زينة . وكثيراً ما راموا هذه الزينة فتحولت بين ايديهم ضعفاً

واذا كان قد انتفى هذا الزعم فهل يصدق زعم الذين يزعمون ان يسوع اقتبس تعاليمه من كتبة اليهود وان عظمته مستمدة من عظمة الشعب اليهودي

لا اعلم احداً يرفع اكثر مني شأن هذا الشعب اليهودي الوحيد الذي يظهر ان من خواصه اجتماع النقيضين فيه اي اعظم الخير واعظم الشر . نعم ان يسوع نبت من اليهودية ولكنه نبت منها كما نبت سقراط من مدارس السفسطائيين ولوثر من العصور الوسطى ولامينه من الكاثوليكية وروسو من القرن الثامن عشر . فان الانسان في هذه الحالة يكون من قومه ومن عصره حتى ولو قاوم ونبذ قومه وعصره . وعلى ذلك فيسوع بدل ان يعدّ مكملاً للدين

الاسرائيلي هو في الحقيقة مقاوم للروح اليهودي وقاطع كل صلة به · ولقد انفصلت المسيحية بعده عن اليهودية انفصالاً تدريجياً · وكمالها ليس في العودة الى اليهودية بل الى يسوع · ففضل مؤسسها يكون اذاً كاملاً ولا يقبل شريكاً ابداً

وهذا الشخص العظيم الذي لا يزال يرئس امور الدنيا حتى اليوم هو شخص الهي لا بمعنى انه استغرق كل «الشيء الالهي» بل بمعنى انه الفرد الذي رفع نوعه نحو «الالهي» بقوة لم تُعطَ لسواه · فان الانسانية اجمالاً انما هي عبارة عن مجموع مخلوقات واطئة شديدة الأثرة لا تفضل الحيوان الا بشيء وهو ان أثرتها عن غريزة وأثرتها عن امعان نظر وتفكير وبين هذه الانسانية الواطئة المتماثلة تقوم اعمدة شاهقة ترتفع نحو السماء طالبة غرضاً آخر غير الارض · فهي عبارة عن دليل يدل الانسان من اين خرج والى اين يجب ان يتجه · ويسوع كان اعلى هذه الاعمدة · ففي طبيعته اجتمع كل ما في طبيعتنا من صلاح وجمال · نعم انه غالب الاهواء التي نغالبها نحن وربما قد صدرت عنه اغلاط كتمها تلامذته كما انهم لم يفهموا كثيراً من افكاره العظيمة ولكن لم يقم في العالم شخص قدَّم مصلحة الانسانية كلها على مصلحة نفسه بالدرجة التي بلغ يسوع اليها · فانه بانصرافه الى افكاره انصرافاً تاماً انقطع عما عداها الى حدّ انه اصبح في آخر حياته لا يرى العالم ولا يرى سواها · ولم يوجد في الارض رجل داس العائلة وملاذ العالم وافراحه والامور الدنيوية بالقوة التي داسها يسوع بها · فانه اصبح لا يعيش الا من ذكر ابيه السماوي وتذكار المهمة التي كان يعتقد انه مرسل من اجلها · وبهذا الغلو في الارادة والاستقلال في تاييد الفكر فتح يسوع السماء وداس قوة الموت دوساً

والآن فلنتساءل ماذا يخبيء المستقبل لنا · ترى هل يتجدد الامر الغريب ام تكتفي الانسانية باتباع الطرق التي فتحها لها جبابرة العصور القديمة · لسنا نعلم شيئاً من ذلك · ولكن كيفما كانت الحال فان يسوع لا يفوقه احد في المستقبل · وديانته ستتجدد على الدوام الى ما شاء الله · وقصته وحديث آلامه يستدران الى الابد الدموع من اجمل العيون وتنفطر لها رق القلوب · وكل القرون والاجيال الآتية ستجهر وتنادي بانه لم يولد في بني الانسان شخص اعظم من يسوع

وقع خطأ في نمرة الصفحة التالية وصحتها ٦٣ وكذلك الفصل التالي وصحته (الرابع والعشرون)

الفصل السادس والعشرون

عودة التلامذة الى الجليل بعد صلب يسوع

اول ما يقصده كل من فقد عزيزاً كريماً زيارة الاماكن التي عاش فيها معه · ولذلك اتجه التلامذة نحو الجليل بعد عيد الفصح ببضعة ايام (١) فكأن الديانة المسيحية عادت في هذا الوقت مع التلامذة الى الارض التي نبتت فيها لتودعها هنيهة ثم تعود فتنتشر في الكرة الارضية

وهكذا التقى مرة ثانية اخص تلامذة يسوع وهم بطرس وتوما ونثنائيل وابنا زبدى على شاطئ بحيرة طبريا وعاشوا معاً وعادوا الى صناعة صيد السمك في بيت صيدا وكفر ناحوم كما كانوا من قبل · وقد عادت النسوة الجليليات الى الجليل معهم · بل هنّ اللواتي حملنهم على هذه العودة ليلهن الى الوطن الاول الذي شاهدن فيه ما شاهدن من الحوادث الجميلة · وهذا آخر عمل عملنه في تأسيس الديانة المسيحية · ومنذ هذا الحين لم يعد يظهر لهنّ اثر في تاريخ المسيحية لانهنّ كرهن مفارقة تلك البلاد التي ذقن فيها اعظم المسرات · وهكذا وضع ذكرهنّ منذ تلك الحين في زاوية النسيان · وبما ان المسيحية في بلاد الجليل لم تقم لها بعد ذلك قائمة فقد نقصت اهمية هؤلاء النسوة اللواتي كان لهنّ الفضل العظيم في تأسيس الديانة المسيحية ونسي ذكرهن في بعض التقاليد · وهكذا لم تعد مريم المجدلية ومريم كليوفاس وحنه وسوسان — هؤلاء الجليليات اللواتي يجب ان يعتبرن المؤسسات الحقيقيات للدين المسيحي — الا كقديسات صغيرات لا شان لهن · فان القديس بولس لا يعرفهن (١) وقد بقين مهملات حتى القرون المتوسطة · فيومئذ استرددن المنزلة التي لهنّ وصار لمريم المجدلية في سماء المسيحية ذلك المقام الرفيع الذي

(١) وهناك سبب آخر وهو ما جاء في الاناجيل من اعتقاد التلامذة ان يسوع سبقهم الى الجليل

(١) قال الرسول بولس عن السيد المسيح في ص ١٥ ع ٥ من رسالته الى كورنثوس „ انه ظهر لصفا ثم للاثني عشر وبعد ذلك ظهر دفعة واحدة لاكثر من خمس مئة الخ „ وبذلك اغفل الرسول ذكر مريم المجدلية وباقي النسوة اللواتي جاء في الاناجيل انهن كن اول من شاهدنه · وهو اجحاف بحقوق النساء

كان من حقها

وكان التلامذة يعيشون يومئذ في الجليل كاخوة وقد اجتمع حولهم نحو خمس مئة نفس من الجليليين الذين كانوا عرفوا يسوع وانجذبوا الى تعليمه . فاقاموا في تلك البلاد نحو سنة وهم يعيشون اجمل عيشة لان روح يسوع كانت ترفرف عليهم وتظهر لهم . فكانت حياتهم هذه عبارة عن تصورات جميلة

الفصل السابع والعشرون

عودة الرسل من الجليل الى اورشليم للشروع في البشارة

« الصعود »

وبعد اقامة الرسل سنة في بلاد الجليل كما تقدم راموا العودة الى اورشليم لان يسوع امرهم بان ينتشروا في الارض للبشارة بالكلمة في جميع الاقطار . وكانت اورشليم اول هذه الاقطار بالطبع . فساروا اليها وهجروا وطنهم الجليل هجرة لا رجوع بعدها اليه . ولا خلاف في انه بقي بعد ذلك في الجليل كثيرون من اتباع الرسل ولكن لم يرد لهم ذكر فيما بعد . فغير بعيد ان يكونوا قد فنيت آثارهم في تلك البلاد كما فني فيها كل شيء في الحرب التي اثارها فيها فسباسيانوس الروماني . ومن المعلوم ان الطوائف التي كانت تعيش في تلك البلاد قد لجأت بعد هذه الحرب الى ما وراء نهر الاردن . فلما سكنت رحى هذه الحرب امتنع المسيحيون من العودة اليها وعاد اليها اليهود فقط . وهكذا صارت الجليل في القرن الثاني والثالث والرابع عبارة عن مركز اليهودية ووطن التلمود . وبناء على ذلك لم تدخل الجليل في تاريخ الديانة المسيحية الا زمناً محدوداً . ولكن هذا الزمن كان اقدس الازمان واعظمها . ذلك لان جمال الدين المسيحي وقوته وسناءه اعني " الانجيل " لم يبرز الى الوجود الا في هذا الزمن . فالانجيل اذاً من اصل جليلي . وسيرد الكلام على ان الانجيل كان السبب الاول في نجاح الديانة المسيحية في الماضي وسيكون الضمانة الوثيقة لها في الزمن الآتي

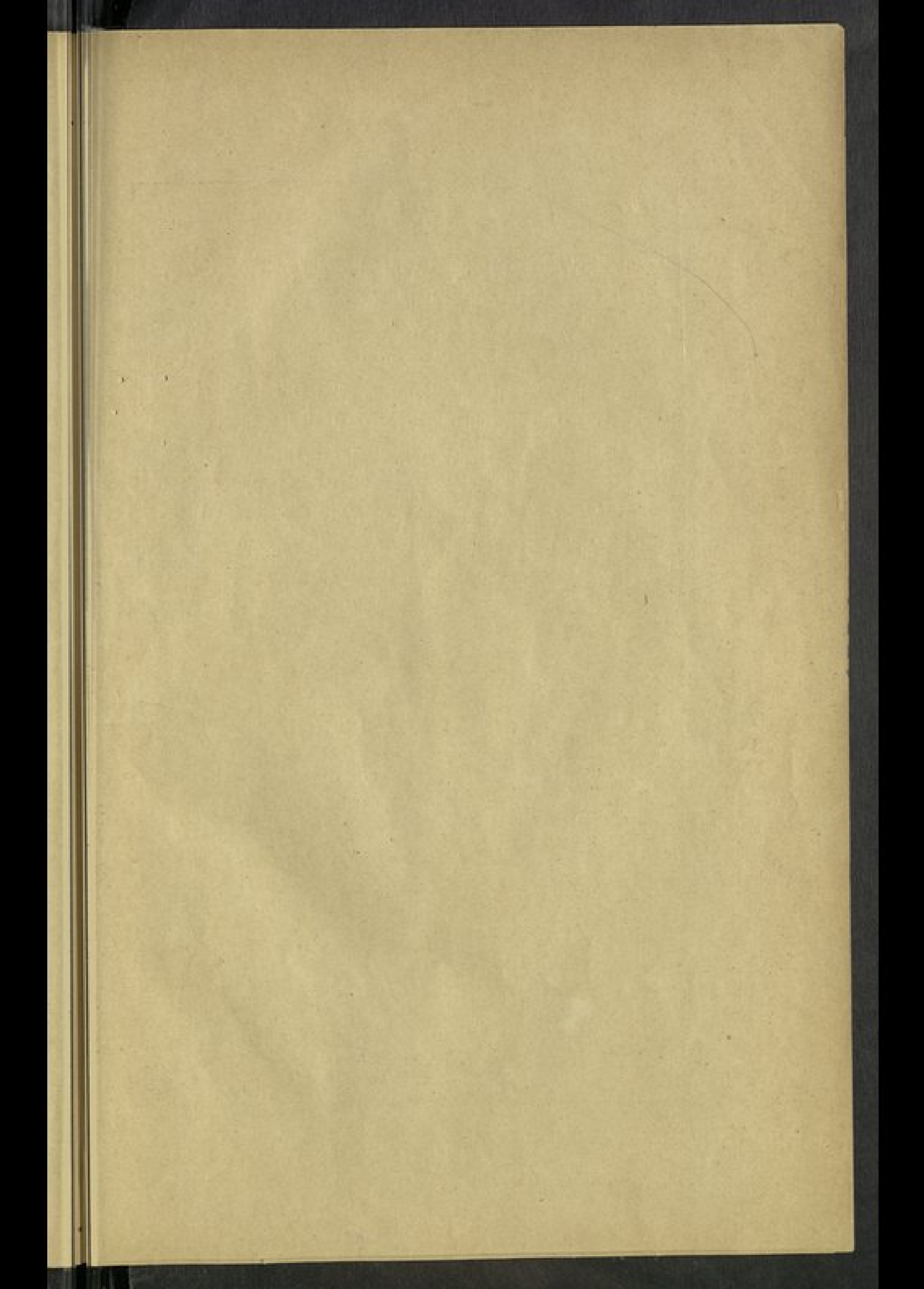
وبعد اجتماع التلامذة في اورشليم كان صعود يسوع كما ورد في الانجيل . وقد قال لوقا الانجيلي في ذلك " وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وصعد الى السماء فسجدوا له ورجعوا الى اورشليم بفرح عظيم "

اما نحن فاننا نفارق يسوع بحزن عظيم . نفارقه هنا ونودعه لنذكر تاريخ تلامذته .

ولقد كان في حياته الثانية هذه جمال وسناء يعزي النفس ويجعلها تشعر بقربها من ذلك الذي كان مثالاً للجمال والسناء وان كانت هذه الحياة في الحقيقة صورة للاولى . وحزننا الآن عظيم لاننا حرمنا ذلك العرق الطيب الذي كان ينتشر من شخصه ونفسه . لقد صعد على الغمامة الى يمين ابيه وتركنا مع جماعة من البشر لهم كل صفات البشر . فما اصعب هذا السقوط . وما اشد البعد بين امس واليوم . يا ايتها الارض لقد ذهب ملك الجمال والسناء فاندبي هذا الملك المفقود . انظري لقد ازوت مريم المجدلية في قريتها لتدفن فيها تذكاراتها الجميلة . لقد بطلت الخطب على الجبل وبطل شفاء المجانين ومداواة المرضى . لقد ذهب مؤسس ديانة الحق والروح . وسيكون تاريخ هذه الديانة بعده تاريخاً لابتعاد اهلها عن المبادىء الابدية الازلية التي وضعها مؤسسها فيها . ومع ذلك فان هذا التاريخ مهما طرأ عليه فانه يبقى تسبيحاً عظيماً لمجد ذلك المؤسس العظيم . ذلك لان صورة هذا الابن الصالح وكلامه الحي سيكونان دائماً في وسط صغائر الامور وهناتها بمنزلة صورة للكمال الرفيع الذي لا يبلغ طرف الانسان حده

تم تاريخ المسيح

ويليه تاريخ الرسل



ذيل اول

رد رنان على حارميه ومناظريه

(بعد ظهور كتابه هذا)

لما انتشر كتاب رنان هذا صدر امر من الكنيسة بحرمان رنان منها كما حرم المجمع الروسي المقدس الفيلسوف تولستوي في العام الماضي. وانهالت الردود على صاحب الكتاب. وكان الرادون عليه فريقين: فريق الاكليريكيين ولا حاجة الى ذكر براهينهم لانها معروفة. وفريق الماديين وهؤلاء عنفوا المؤلف لانه اعتمد على الانجيل في كتابة تاريخه واثنى على المسيحية وعلى العواطف الدينية ثناء لا يصدر عن اعظم انصار الاديان. اما رنان فقد ردّ على الفريقين في مقدمة كتابه (تاريخ الرسل) بما خلاصته:

« اني اؤمل ان بعض القراء الذين تحمسوا منذ سنتين ونصف سنة لمطالعتهم « تاريخ يسوع » يطالعون هذا الكتاب بهدوء ورزانة. فان المجادلات الدينية انما تُبنى دائماً على سوء القصد من طالب المجادلة على غير علم منه ولا قصد. ذلك لانه لا يطلب الحقيقة بهدوء ورزانة حيثما كانت ولكنه يؤكد ان الحقيقة في قبضته ولذلك لا يكون له همٌّ غير نسبة الجهل والافتراء الى مناظره. فالطعن والسب وتزوير الافكار والاقوال والافتراء والاحتماء بعواطف البسطاء والجهلاء — كل ذلك يراه طالب المناظرة الدينية امراً جائزاً له لانه يزعم انه يدافع عن الحقيقة التي يراها في قبضته. وقد كنت اتوقع ذلك لانني لا لا اجهل حوادث التاريخ وارى في نفسي من الهدوء وثبات الجأش ما يحول بيني وبين التأثر

منه . فانا استقبله بهذا الهدوء كما استقبل بسرور وتلذذ العواطف البسيطة المؤثرة التي حملت مناظريّ على هذه المناظرة . وكما بدا لي ذلك الغضب الصادر بصراحة من نفوس كريمة نقية فانني لا اتمالك ان اصيح «يا للبساطة المقدسة» كما صاح جان هوس (اللاهوتي الذي أُعدم حرقاً) لما رأى امرأة تأتي الى محرقته بحزمة حطب والعرق يتصبب منها من التعب . ولكني اسفت كل الاسف لان كل ذلك الصياح والغضب لا يفيد الحقيقة شيئاً . ولا غرابة في ذلك فان الحقيقة لا تتجلى للذين يطلبونها بحماسة وغضب . ولكن للذين يطلبونها بهدوء وتأمل دون غرض ولا بغض . وليس في ذكر الانسان مبدأ من المبادىء اهانة لاحد فان الذين يرون فيه اهانة لمبادئهم يستطيعون التخلص منه بعدم وقوفهم عليه . كما يصنع الجبناء وضعفاء العقول اذا لم يقرأوه

ولقد كتب اليّ بعض الناس من كل صوب يقولون «ما غرضك من هذا . وماذا تريد» فانا اجيبهم بان غرضي كغرض كل مؤلف يكتب في التاريخ . ولو كان لي عدة اعمار لا عمر واحد لوقفت احدها لكتابة تاريخ الاسكندر المكدوني والثاني لكتابة تاريخ اثينا والثالث لكتابة تاريخ الثورة الفرنسوية والرابع لكتابة تاريخ جمعية سان فرنسوى . واي غرض يكون لي اذا كتبت هذه الكتب ? لا يكون لي غرض سوى وجود الحقيقة واحيائها واعادة ذكر الحوادث الكبرى التي حدثت في الزمن الماضي بقدر ما يمكن من الصدق والتدقيق . اما ضعضعة عقائد الناس فهذا امر بعيد عن فكري . ولو كنت اقصده لطرقت هذا الموضوع من باب آخر بان اتناول الاقوال والافعال واظهر ضعيفها دون قويها وابسط التناقض الذي بينها ولا اعطي احداً من كلامي حجة عليّ . ولكنني لا اكتب لذلك وانما اكتب لتقرير الحقيقة . ومتى كتب الانسان لهذا القصد وجب ان لا يعبأ بشيء وان لا يتساهل في شيء بل ان يكتب كأنه يكتب لكرة قفراء لا ناس فيها . والا فان كل تساهل وكتمان يُعدُّ اهانة للحقيقة ولصناعة الكتابة السامية

فنحن اذاً نكتب ما نكتب دون ان نطلب اسكات المبادىء التي تناقض مبادئنا او ان نقحمها ونحمل عليها . بل نكتب دون التفات اليها كأنها غير موجودة عندنا . واذا قبل احد مبادئنا فذلك دليل على ان عقله مستعد لها اما من كان عقله غير مستعد لها فانه لا يقبلها . وليس بسوفي شيء في العالم مثل ان يقنعني احد بان اجتذب الى هذه المبادىء رجلاً لا يأتي اليها من تلقاء نفسه . وذلك مما يجعلني استنتج انني اما اصبحت مضطرب الفكر بعد الهدوء واما ان شيئاً خصوصياً قد أثقل عليّ حتى صرت لا تروقني بهجة الدنيا ولا

اكتفي بمشاهدة جمال العالم...

فعملي اذاً مقصور في كتبي على البحث عن الشرائع العامة التي تحكم الانسانية وتدرج الانسانية فيها . ولست اتنازل عن هذا العمل الى فنّ المجادلة وان كان هذا الفن اكثر ثمرة لصاحبه . واذا لزمت المجادلة فان فولتير يكفي . فانه اذا نُشرت كتبه من جديد كان فيها جواب لكل طالبي المجادلة . ولا انكر انه جواب سيءٌ في ذاته ولكنه منطبق على ما يروم نقضه . فهو جواب متأخر لفن متأخر . اما نحن معشر عشاق الحق وطالبي الحقيقة فعلينا ان نصنع افضل من ذلك . علينا ان نترك تلك المجادلات لمن يطلبونها ونشتغل للفئة القليلة التي تسير في جادة الانسانية والصراط المستقيم

هذا هو سبيلي في كتابة التاريخ . ولست اجهل ان بعض الناس يستبطئون سير الفكر ولا يُمهلونه ولذلك يطلبون منه السرعة في عمله . اما نحن فلا نكوننَّ من جملة هؤلاء الناس . بل فلنتجنب العجلة ولا نؤسس شيئاً جديداً . وليبقَ كل واحد منا في قلب كنيسته منصرفاً الى فضائلها القديمة واعمالها الخيرية ومتمتعاً بجمال الماضي . ولا ننبذن تعصب هذه الكنائس بل فلنصفح عنه لان هذا التعصب حاجة من حاجات القلب البشري مثل حب الذات الفطري . ومن المحتمل ان العلائق بين البروتستانت والكاثوليك واليهود تتغير بعد مائة سنة ولكنها لا تتغير كثيراً (ولم يذكر الارثوذكس اذ ليس في فرنسا احد منهم) . الا انه سيحدث انقلاب عظيم من وجه آخر . فان كل واحد من هذه المذاهب ينقسم اهله قسمين . فقسم يعتقد بقواعد مذهبه حرفياً كما كان يعتقد الناس بها في القرون الوسطى وقسم يعتقد بآدابها فقط لا بكل ما فيها حرفياً . وهذا القسم الثاني يزداد وينمو في كل مذهب . وبما ان الذي يفرّق الناس الآن هو حرفية القواعد لا مبادئها الاجمالية فان انصار هذا القسم من كل المذاهب يتقربون بعضهم من بعض الى درجة يرون انفسهم عندها في غنى عن قطع صلاتهم بالقسم الاول من اجل اتحادهم . ويومئذ يغرق التعصب في سيل من التساهل العمومي . وتصبح الطقوس والتقاليد فلكاً سرياً يتفق الجميع على عدم فتحه . واذا كان هذا الفلك فارغاً فاي ضرر في فراغه .

على انني اخشى ان يثبت الدين الاسلامي وحده في وجه هذا الارتخاء العام في العقائد . ولكنني اعرف ان في نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الاسلامي القديمة وفي بضعة من رجال الاستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة تدل على فكر واسع وعقل ميال للمسالمة . الا انني اخشى ان تختنق هذه الجراثيم بتعصب بعض الفقهاء . فاذا اختنقت

ففي على الدين الاسلامي · ذلك انه من الثابت الآن امران : الاول ان التمدن الحديث لا يريد اماتة الاديان القديمة موتاً نهائياً لانه يتخذها آلة له · والثاني انه لا يطيق ان تكون هذه الاديان عثرة في سبيله · فعلى هذه الاديان اما ان تسالم وتلين او ان تموت

فما الفائدة اذاً من وضع مبادىء الدين الاصلية النقية من كل شائبة في موضع يؤذيها بدلاً من بقائها خارج دائرة الاحزاب والمذاهب ؟ ما الفائدة من اقامة مذهب ضد مذهب وراية ضد راية اذا كان الخلاص ممكناً للجميع وغير متوقف الا على نقاء باطن الانسان وشرف اخلاقه ؟ ومن المعلوم ان الانقسام بين البشر والغلو في المعتقدات يؤديان الى رد الفعل في كل امر وكل مذهب · فانه لولا لوثيروس وكالفين لما قام كارافا وشيسليبري ولويولا وفيليب الثاني · اما نحن فاذا نبذتنا كنيستنا وجب ان لا نغضب ولا نشكو · وانما يجب ان نذكر بسرور تلطف العادات العصرية وانقلاب الزمان الذي صيّر هذا البغض بلا تاثير كأنه لم يعد شيئاً مذكوراً · ولنعزّ انفسنا عن ذلك بالتأمل في تلك الكنيسة الغير المنظورة التي تشتمل على رجال الصلاح المحرومين اولئك الرجال الذين هم في كل مذهب نخبة الكنيسة التي تحرمهم · وهؤلاء الرجال هم متقدمون عصرهم وقواد الجيل الآتي لانهم سيكونون في المستقبل بالنسبة الى تطرف الاجيال الآتية اكثر الناس انتصاراً للمبادىء الدينية · ومع ذلك فاي معنى للحرمان وما الفائدة منه · ان الاب السماوي لا يحرم الا العقول الجافة والنفوس الشرهة والقلوب الضيقة · واذا كان معنى الحرم ان الكاهن لا يقبل جثتنا في مدفنه فعلينا ان نمنع عيلتنا من تقديمها له · والله بيننا خير الحاكمين · اما الارض فانها ام حنون لا تفرق بين جثة وجثة · وجثة الرجل الصالح متى دُفنت في حفرة فيها فانها تجلب البركة معها من عند نفسها

ولست اجهل ان اتباع هذه المبادىء صعب على بعض الناس خصوصاً المرتبطين بالنذور كرجال الاكليروس · مثال ذلك ان كاهناً شريف الاخلاق تحقق فراغ الفلك الذي اشرنا اليه واستحالة العمل بحرفية القواعد · فما عليه ان يعمل · هل يجب ان يسيء الى الذين كان يعزيهم ويسليهم بان يطلعهم على اكتشاف لا يفهمونه ؟ معاذ الله ان يكون ذلك واجباً عليه فانه ليس في العالم كله رجلان واجباتهما متساوية · فان مطران كولانسو مثلاً قد صنع صنعاً دلّ على نزاهة سيرته وسريرته لما دوّن بين اوراقه الشكوك التي قامت في نفسه بشأن معتقداته · وهذا العمل فريد في بابه منذ قيام الديانة المسيحية · ولكن الكاهن الفرنسوي الذي تقوم في نفسه شكوك كتلك الشكوك عليه السكوت في بلاد ضيقة

العقول كبلادنا . ولذلك سكت كثيرون من الكهنة . واذا فتشت حول كنائس القرى وجدت كثيرًا من القبور تضم اسرارًا لم يقف عليها احد غير الله . فهؤلاء الذين سكتوا مساوون في الفضل لاولئك الذين نطقوا

فالعلم اذًا شيء والعمل شيء آخر . والكمال يجب ان يبقى كمالاً في جوه الرفيع والا فانه يتلوث اذا اريد العمل به . وكم من الافكار والمبادىء تكون مفيدة لاهل الفهم واصحاب العقول النيرة ومضرة بالطبقة الواطئة . ذلك ان الانسان لا يستطيع ان يعمل اعمالاً عظيمة الا اذا كانت له خطة مقررة وطريق مخطوطة . وهذا ناشىء عن ان لقواه حدودًا معينة . واذا كان الانسان تجردًا عن كل وهم وعادة واصطلاح فانه يكون مخلوقًا ضعيفًا . فلنتمتع اذًا بنعمة الحرية المعطاة لنا نحن ابناء الله ولكن لا نجعلن انفسنا شركاء في ما يصيب الهيئة الاجتماعية من تناقص الفضائل اذا ضعفت الديانة المسيحية . اذ ماذا تكون بدون هذه الديانة اذا انمحت . ومن يقوم مقام تلك الرهبانيات التي هي عبارة عن مدرسة للنظام والجد والاحترام والاخلاص . **وكيف لا يخيفنا حينئذ الجفاف والقسوة اللذان يسطوان على كل القلوب والصغائر التي تستولي على العالم . نحن على اتفاق تام في هذه المسائل مع رجال الدين . وانما الخلاف الذي بيننا علمي لا ديني . فقلوبنا اذًا معهم وعدونا عدوهم . ونعني بهذا العدو المبادىء المادية الواطئة التي لا ترى في الكون شيئاً غير المادة ودناءة بعض البشر (يعني بعض رجال الاكليروس) الذين يرومون استخدام كل امر حتى الامور المقدسة في سبيل مصالحهم الخصوصية**

فنسألكم اذًا باسم الله ان تتركوا كل خصام ونزاع . دعوا الاحزاب والمذاهب التي وضعها البشر تعيش بتساهل بعضها مع بعض . ولا تطلبوا من بعضها ان يتنازل عن شيء من مبادئه اكرامًا للآخر فان ذلك يحط من قدرها . وانما اطلبوا ان يحمل بعضها بعضًا ويتسامح بعضها لبعض فانه ليس في العالم قوة تستطيع ملاشاة باقي القوات ولا في امكان مبدإ ان يعيش دون نقيضه . بل ان الشيء ونقيضه في هذا العالم لا بدّ ان يعيشا معًا . وانما ينشأ نظام الانسانية من اتحاد اصواتها الكثيرة مهما كانت مختلفة . ولكن هب ان ما يسمونه « استقامة الايمان » قد تمكن من قتل العلم فماذا تكون النتيجة ؟ ان نتيجة هذا القتل معروفة لا تخفى على احد . فان العالم الاسلامي واسبانيا قد قاربا الموت لانهما خنقا العلم وسدا سبيله . وكذلك هب ان العلم المادي رام حكومة العالم من غير التفات الى حاجات النفس الدينية فماذا تكون النتيجة ؟ ان نتيجة هذا الامر معروفة ايضًا وقد

ظهرت في اثناء الثورة الفرنسوية · وهذا مصير كل افراط وكل تفريط في العالم · انظر الى ايطاليا في ايام نهضتها تجد ان ارتقاء الفنون فيها الى اسمى درجات الكمال جعلها مكاناً قذراً لان ذلك الكمال في الفنون لم يكن مقروناً بالفضيلة والحشمة · وانظر الى بعض البلاد البروتستنتية تجد ان الفجور والصغائر والتأخر في الفنون امور تتولد فيها عقاباً لها على الغائها الفنون والزينة وتشديدها على العلم بحجة البساطة وحفظ اصول الدين الحقيقية · فلوكريس وسنت تريزه · واريستوفان وسقراط · وفولتير وفرنسوى داسيز · ورفائيل وسان فنسان دي بول - كل واحد من هؤلاء لا غنى للعالم عنه وان اختلفت وجهاتهم ومقاصدهم · واذا فقدت الانسانية شيئاً من هذه العناصر المختلفة التي تتألف منها صغرت ونقصت نقصاً يظهر فيها » اه

ذيل ثانٍ

تاريخ حياة المسيح واعماله



كما يكتبه مؤرخو العرب

(نقلاً عن التاريخ الكامل للمؤرخ المشهور ابي الحسن ابن الاثير الجزري)

ليس يخلو من فائدة ان نردف تاريخ المسيح كما كتبه رنان بتاريخ المسيح كما يكتبه مؤرخو العرب نقلاً عن الكتب والاخبار الدينية . فاخترنا من كلامهم بهذا الصدد كلام المؤرخ ابن الاثير المشهور . وهذا نصه

(ذكر ولادة المسيح الى آخر امره)

« كانت ولادة المسيح ايام ملوك الطوائف . قالت المجوس كان ذلك بعد خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على ارض بابل وبعد احدى وخمسين سنة مضت من ملك الاشكانيين . وقالت النصارى ان ولادته كانت لمضي ثلاثمائة وثلاث وستين سنة من وقت غلبة الاسكندر على ارض بابل . وزعموا ان مولد يحيى (١) كان قبل مولد المسيح بستة اشهر وان مريم عليها السلام حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة وقيل خمس عشرة وقيل عشرين . وان عيسى عاش الى ان رُفع (الى السماء) اثنتين وثلاثين سنة واياماً وان مريم عاشت بعده ست سنين فكان جميع عمرها احدى وخمسين سنة . وان يحيى قُتل قبل ان يُرفع المسيح . واتت المسيح النبوّة والرسالة وعمره ثلاثون سنة . وقد ذكرنا حال مريم في خدمة الكنيسة وكانت هي وابن عمها يوسف بن يعقوب بن ماثان النجار يليان خدمة الكنيسة . وكان

(١) يوحنا المعمدان

يوسف حكيماً نجاراً يعمل بيديه ويتصدّق بذلك . وكانت مريم اذا نفد ماؤُها وماء يوسف ابن عمها اخذ كل واحد منهما قلّته وانطلق الى المغارة التي فيها الماء يستعذبان منه ثم يرجعان الى الكنيسة . فلما كان اليوم الذي لقيا فيه جبرائيل نفد ماؤُها فقالت ليوسف ليذهب معها الى الماء . فقال عندي من الماء ما يكفيني الى غدٍ . فاخذت قلّتها وانطلقت وحدها حتى دخلت المغارة فوجدت جبرائيل (الملاك) قد مثله الله لها بشراً سوياً . فقال لها يامريم ان الله قد بعثني اليك لاهب لك غلاماً زكياً . قالت اني اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً . اي مطيعاً لله . وقيل هو اسم رجل بعينه وتحسبه رجلاً . قال انما انا رسول ربك لاهب لك غلاماً زكياً قالت انّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر قال كذلك قال ربك (الى قوله امراً مقضياً) فلما قال ذلك استسلمت لقضاء الله فنفخ في جيب درعها ثم انصرف عنها . وملأت قلّتها وعادت . وكان لا يُعلم في اهل زمانها اعبد منها ومن ابن عمها يوسف النجار . فلما حملت واتتها خالتها امرأة ذكريا ليلةً تزورها وفتحت لها الباب التزمتها فقالت لها امرأة ذكريا اني حبلى فقالت لها مريم وانا ايضاً حبلى قالت امرأة ذكريا فاني وجدتُ ما في بطني يسجد لما في بطنك . وولدت امرأة زكريا يحيي (يوحنا) وقد اختلف في مدة حملها فقيل تسعة اشهر وهو قول النصارى وقيل ثمانية اشهر فكان ذلك آية اخرى لانه لم يعش مولود لثمانية اشهر غيره . وقيل ستة اشهر وقيل ثلاث ساعات وقيل ساعة واحدة وهو اشبه بظاهر القرآن العزيز لقوله تعالى « فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً » عقبه بالفاء . فلما احست مريم خرجت الى جانب المحراب الشرقي فاتت اقصاه فاجاءها المخاض الى جذع النخلة فقالت وهي تطلق من الحبل استحياء من الناس : يا ليتني متُّ قبل هذا وكنتُ نسياً منسياً . يعني نُسي ذكري واثري فلا يرى لي اثر ولا عين . قالت مريم كنت اذا خلوتُ حدثني عيسى وحدثته . فاذا كان عندنا انسان سمعتُ تسبيحه في بطني . فناداها جبرائيل (الملاك) من تحتها اي من اسفل الجبل : لا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً وهو النهر الصغير اجراه تحتها . فمن قرأ من تحتها بكسر الميم جعل المنادي جبرائيل ومن فتحها قال انه عيسى انطقه الله . وهزي اليك بجزع النخلة . كان جزعاً مقطوعاً . فهزته فاذا هو نخلة . وقيل كان مقطوعاً فلما اجهدها الطلق احتضنته فاستقام واخضرّ وارطب . فقيل لها وهزي اليك بجزع النخلة فهزته فتساقط الرطب . فقال لها كلي واشربي وقرّي عيناً فاما ترين من البشر احداً فقولي اني نذرتُ للرحمن صوماً فلن اكلم اليوم انسياً . وكان من صام في ذلك الزمان لا يتكلم حتى يمسي . فلما ولدته ذهب ابليس فاخبر بني اسرائيل ان مريم قد

ولدت . فاقبلوا يشتدون بدعوتها فاتت به قومها تحمله . وقيل ان يوسف النجار تركها في مغارة اربعين يوماً ثم جاء بها الى اهلها وكانت من نسل هرون اخي موسى كذا قيل . قلت انها ليست من نسل هرون انما هي من سبط يهوذا ابن يعقوب من نسل سليمان بن داود . وانما كانوا يدعون بالصالحين . وهرون من ولد لاوي بن يعقوب . قالت لهم ما امرها الله به بعد ذلك . وقيل انه لما دنا نفاسها اوحى الله اليها ان اخرجي من ارض قومك فانهم ان ظفروا بكِ قتلوك وولدكِ . فاحتملها يوسف النجار وسار بها الى ارض مصر فلما وصلا الى تخوم مصر ادركها المخاض . فلما وضعت وهي محزونة قيل لها لا تحزني (الآية الى انسيا) فكان الرطب يتساقط عليها وذلك في الشتاء . واصبحت الاصنام منكوسة على رؤسها وفزعت الشياطين فجاؤوا الى ابليس فلما رأى جماعتهم سألهم فاخبروه فقال قد حدث في الارض حادث . فطار عند ذلك وغاب عنهم فمرّ بالمكان الذي ولد فيه عيسى فرأى الملائكة محدقين به . فعلم ان الحدث فيه . ولم تمكنه الملائكة من الدنو من عيسى فعاد الى اصحابه واعلمهم بذلك وقال لهم ما ولدت امرأة الا وانا حاضر لاضل به اكثر ممن يهتدي . واحتملته مريم الى ارض مصر فمكث اثني عشرة سنة تكتمه من الناس فكانت تلتقط السنبل والمهد في منكبيها . وقيل ان مريم حملت المسيح الى مصر بعد ولادته ومعها يوسف النجار وهي الربوة التي ذكرها الله تعالى وقيل الربوة دمشق وقيل بيت المقدس وقيل غير ذلك . فكان سبب ذلك الخوف من ملك بني اسرائيل وكان من الروم واسمه هيرودس . فان اليهود اغروه بقتله فساروا الى مصر واقاموا بها اثني عشرة سنة الى ان مات ذلك الملك وعادوا الى الشام . وقيل ان هيرودس لم يرد قتله ولم يسمع به الا بعد رفعه وانما خافوا اليهود عليه والله اعلم

ذكر معجزات المسيح

لما كانت مريم بمصر نزلت على دهقان وكانت داره يأوي اليها الفقراء والمساكين فسُرق له مال فلم يتهم المساكين فحزنت مريم فلما رأى عيسى حزن امه قال اتريدين ان ادلّه على ماله قالت نعم قال انه اخذه الاعمى والمقعد . اشتركا فيه فحمل الاعمى المقعد فاخذه . فقيل للاعمى ليحمل المقعد فاظهر العجز فقال له المسيح كيف قويت على حمله البارحة لما اخذتما المال . فاعترفا واعاداه . ونزل بالدهقان اضياف ولم يكن عنده شراب فاهتمّ لذلك فلما رآه عيسى دخل بيتاً للدهقان فيه صفان من جرار فامرّ عيسى يده على افواهها وهو يمشي فامتلأت شراباً وعمره حينئذ اثنتا عشرة سنة . وكان في الكتاب يحدّث الصبيان بما يصنع اهلوهم وبما كانوا يأكلون . قال وهب : بينما عيسى يلعب مع الصبيان اذ

وثب غلام على صبي فضربه على رجله فقتله فالقاه بين رجلي المسيح متلطخاً بالدم . فانطلقوا به (اي المسيح) الى الحاكم في ذلك البلد فقالوا قتل صبياً . فسأله الحاكم فقال ما قتلته فارادوا ان يبطشوا به فقال ائتوني بالصبي حتى اسأله من قتله . فتعجبوا من قوله واحضروا عنده القتيل . فدعا الله فاحياه فقال من قتلك فقال قتلني فلان يعني الذي قتله . فقال بنو اسرائيل للقتيل من هذا . قال هذا عيسى ابن مريم ثم مات الغلام من ساعته . وقال عطاء : سلمت مريم عيسى الى صباغ يتعلم عنده فاجتمع عند الصباغ ثياب وعرض له حاجة فقال للمسيح هذه ثياب مختلفة الالوان وقد جعلتُ في كل ثوب منها خيطاً على اللون الذي يُصبغ به فاصبغها حتى اعود من حاجتي هذه . فاخذها المسيح والقاها في جب واحد فلما عاد الصباغ سأله عن الثياب فقال صبغتها فقال اين هي قال في هذا الجب قال كلها قال نعم قال لقد افسدتها على اصحابها وتغيظ عليه . فقال له المسيح لا تعجل وانظر اليها . وقام واخرجها كل ثوب منها على اللون الذي اراد صاحبه فتعجب الصباغ منه وعلم ان ذلك من الله تعالى

ولما عاد عيسى وامه الى الشام نزلوا بقرية يقال لها ناصرة وبها سميت النصارى فاقام الى ان بلغ ثلاثين سنة فاوحى الله اليه ان يبرز للناس ويدعوهم الى الله تعالى ويداوي المرضى والزمنى والاكمه والابرص وغيرهم من المرضى ففعل ما امر به واحبه الناس وكثر اتباعه وعلا ذكره . وحضر يوماً طعام بعض الملوك وكان دعا الناس اليه فقعد على قصعة يأكل منها ولا تنقص فقال الملك من انت قال انا عيسى بن مريم فنزل الملك عن ملكه واتبعه في نفر من اصحابه فكانوا الحواريين (١) وقيل ان الحواريين هم الصباغ الذي تقدم ذكره واصحاب له وقيل كانوا صيادين وقيل قصارين وقيل ملاحين والله اعلم . وكانت عدتهم اثنى عشر رجلاً وكانوا اذا جاعوا او عطشوا قالوا يا روح الله قد جعنا وعطشنا . فيضرب يده الى الارض فيخرج لكل انسان منهم رغيفين وما يشربون . فقالوا من افضلُ منا . اذا شئنا اطعمتنا وسقيتنا . فقال افضلُ منكم من يأكل من كسب يده . فصاروا يغسلون الثياب بالاجرة . ولما ارسله الله اظهر من المعجزات انه صوّر من الطين صورة طائر ثم نفخ فيه فيصير طائراً باذن الله . قيل هو الخفاش . وكان غالباً على زمانه الطب فاتاهم بما ابراء الاكمه والابرص واحيا الموتى تعجيزاً لهم . فممن احياه عازر وكان صديقاً لعيسى فمرض فارسلت اخته الى عيسى ان عازر يموت فسار اليه وبينهما ثلاثة ايام فوصل اليه وقد مات

«١» رسل المسيح وتلامذته

منذ ثلاثة ايام فاتى قبره فدعا له فعاش وبقي حتى ولد له . واحيا امرأة وعاشت وولد لها . واحيا سام بن نوح . وكان يوماً مع الحواريين يذكر نوحاً والغرق والسفينة فقالوا لو بعثت لنا من شهد ذلك فاتى تلاً وقال هذا قبر سام ابن نوح ثم دعا الله فعاش وقال : قد قامت القيامة ؟ فقال المسيح لا ولكن دعوتُ الله فاحياك . فسألوه فاخبرهم . ثم دعا ميتاً واحيا عزير النبي . قال له بنو اسرائيل احيي لنا عزيراً والا احرقناك فدعا الله فعاش . واحيا يحيى بن زكريا واحيا غير من ذكرناه وكان يمشي على الماء

ذكر نزول المائدة

وكان من المعجزات العظيمة نزول المائدة . وسبب ذلك ان الحواريين قالوا له ياعيسى هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء . فدعا عيسى فقال اللهم انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لاولنا وآخرنا . فانزل الله المائدة عليها خبز ولحم ياكلون منها ولا تنفد . فقال لهم انها مقيمة ما لم تدخروا منها . فما مضى يومهم حتى ادخروا . وقيل اقبلت الملائكة تحمل المائدة عليها سبعة ارغفة وسبعة احوات حتى وضعوها بين ايديهم فاكل منها آخر الناس كما اكل اولهم . وقيل كان عليها من ثمار الجنة وقيل كانت تُمد بكل طعام الا اللحم . وقيل كانت سمكة فيها طعم كل شيء . فلما اكلوا منها وهم خمسة آلاف وزادت حتى بلغ الطعام ركبهم قالوا نشهد انك رسول الله . ثم تفرقوا فتحدثوا بذلك فكذب به من لم يشهده وقالوا سحر اعينكم . فافتتن بعضهم وكفر فمسخوا خنازير ليس فيهم امرأة ولا صبي . فبقوا ثلاثة ايام ثم هلكوا ولم يتوالدوا . وقيل كانت المائدة سفرة حمراء تحتها غمامة وفوقها غمامة وهم ينظرون اليها تنزل حتى سقطت بين ايديهم . فبكى عيسى وقال اللهمّ اجعلني من الشاكرين . اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة ولا عقوبة . واليهود ينظرون الى شيء لم يروا مثله ولم يجدوا ريحاً اطيب من ريحها . فقال شمعون (سمعان) يا روح الله أمن طعام الدنيا ام من طعام الجنة . فقال المسيح لا من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة انما هو شيء خلقه الله بقدرته . فقال لهم كلوا مما سألتم . فقالوا له كل انت يا روح الله فقال معاذ الله ان آكل منها . فلم ياكل ولم ياكلوا منها . فدعا المرضى والزمنى والفقراء فاكلوا منها وهم الف وثلثمائة فشبعوا وهي بحالها لم تنقص . فصح المرضى والزمنى واستغنى الفقراء . ثم صعدت وهم ينظرون اليها حتى توارت . وندم الحواريون حيث لم ياكلوا منها . وقيل انها نزلت اربعين يوماً كانت تنزل يوماً وتنقطع يوماً . وامر الله عيسى ان يدعو اليها الفقراء دون الاغنياء ففعل ذلك فاشتد على الاغنياء وجحدوا نزولها وشككوا في ذلك وشككوا غيرهم فيها . فاوحى الله الى عيسى اني

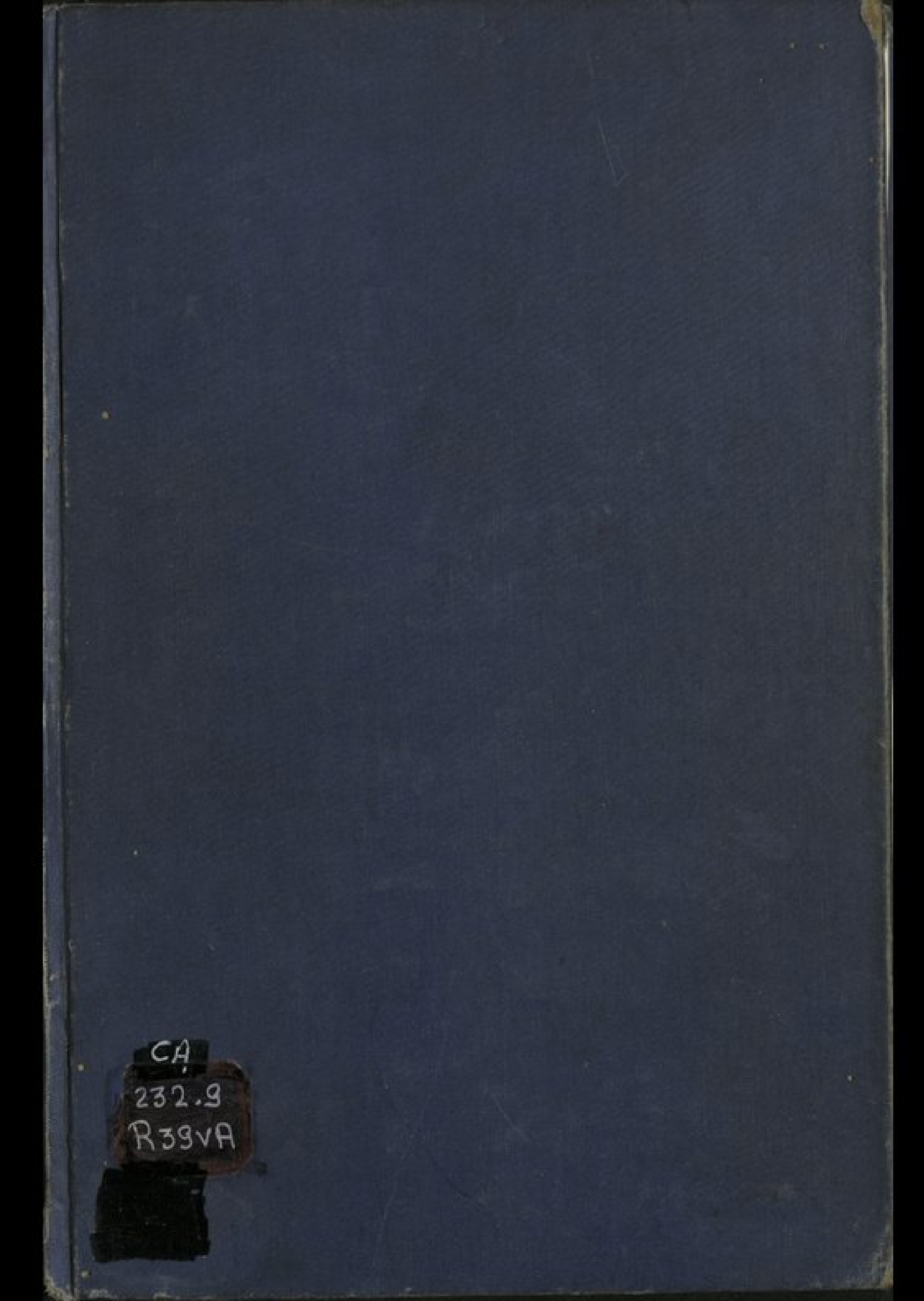
شرطت ان اعذب المكذبين عذاباً لا اعذب به احداً من العالمين فمسخ منهم ثلثمائة وثلاثة وثلاثين رجلاً فاصبحوا خنازير . فلما رأى الناس ذلك فزعوا الى عيسى وبكوا وبكى عيسى على الممسوخين . فلما ابصرت الخنازير عيسى بكوا وطافوا به وهو يدعوهم باسمائهم ويشيرون برؤوسهم ولا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة ايام ثم هلكوا

ذكر رفع المسيح الى السماء ونزوله الى امه وعوده الى السماء

قيل ان عيسى استقبله ناس من اليهود فلما راوه قالوا قد جاء الساحر ابن الساحرة . فسمع ذلك ودعا عليهم فاستجاب الله دعاءه ومسخهم خنازير . فلما رأى ذلك رأس بني اسرائيل فزع وخاف وجمع كلمة اليهود على قتله فاجتمعوا عليه فسألوه فقال : يا معشر اليهود ان الله يبغضكم . فغضبوا من مقالته وساروا اليه ليقتلوه فبعث اليه جبريل فادخله في خوخة الى بيت فيها روزنة في سقفها فرفعه الى السماء من تلك الروزنة . فامر رأس اليهود رجلاً من اصحابه اسمه نطليانوس ان يدخل اليه فيقتله فدخل فلم يرَ احداً والقى الله عليه شبه المسيح فخرج اليهم فظنوه عيسى فقتلوه وصلبوه . وقيل ان عيسى قال لاصحابه ايكم يحب ان يُلقى عليه شبهي وهو مقتول . فقال رجل منهم انا يا روح الله . فالقى عليه شبهه فقتل وصُلب . وقيل ان الذي شبه بعيسى وصلب رجل اسرائيلي اسمه يوشع ايضاً . وقيل لما اعلم الله المسيح انه خارج من الدنيا جزع من الموت فدعا الحواريين فصنع لهم طعاماً فقال : احضروني الليلة فان لي اليكم حاجة . فلما اجتمعوا عشاهم وقام يخدمهم فلما فرغوا اخذ يغسل ايديهم بيده ويمسحها بثيابه فتعاظموا ذلك وكرهوه فقال من يرد عليَّ الليلة شيئاً مما اصنع فليس مني . فاقروه حتى فرغ من ذلك ثم قال اما ما خدمتكم على الطعام وغسلت ايديكم بيدي فليكن لي اسوة فلا يتعاظم بعضكم على بعض . واما حاجتي التي استعينكم عليها فتدعون الله لي وتجتهدون في الدعاء ان يؤخر اجلي . فلما نصبوا انفسهم للدعاء اخذهم النوم حتى ما يستطيعون الدعاء فجعل يوقظهم ويقول : سبحان الله ما تصبرون لي ليلة . قالوا والله ما ندري مالنا لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نقدر عليه الليلة وكلما نريد الدعاء حيل بيننا وبينه . فقال يُذهب بالراعي ويفترق الغنم . وجعل ينعي نفسه ثم قال : ليكفرن بي احدكم قبل ان يصيح الديك ثلاث مرات وليبيعني احدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني . فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فاخذوا شمعون احد الحواريين وقالوا هذا صاحبه . واختلف العلماء في موته قبل رفعه الى السماء فقيل رُفع ولم يمت وقيل توفاه الله ثلاث ساعات ثم احياه ورفعه . ولما رُفع الى السماء قال الله له انزل . فلما قالوا لشمعون عن المسيح جحد وقال ما انا

صاحبه فتركوه وفعلوا ذلك ثلاثاً . فلما سمع صياح الديك بكى واحزنه ذلك . واتى احد الحواريين الى اليهود فدلهم على المسيح واعطوه ثلاثين درهماً فاتى معهم الى البيت الذي فيه المسيح فدخله فرفع الله المسيح والقى شبهه على الذي دلهم عليه فاخذوه واوثقوه وقادوه وهم يقولون له ان كنت تحيي الموتى وتفعل كذا وكذا فهلا تنجي نفسك . وهو يقول انا الذي دللتكم عليه فلم يصغوا الى قوله ووصلوا به الى الخشبة وصلبوه عليها . وقيل ان اليهود لما دلهم عليه الحواريون اتبعوه واخذوه من البيت الذي كان فيه ليصلبوه . فاظلمت الارض وارسل الله ملائكة فحالوا بينهم وبينه . والقي شبه المسيح على الذي دلهم عليه فاخذوه ليصلبوه . فقال انا الذي دللتكم عليه فلم يلتفتوا اليه فقتلوه وصلبوه عليها . ورفع الله المسيح اليه بعد ان توفاه ثلاث ساعات وقيل سبع ساعات ثم احياه ورفعه . ثم قال له انزل الى مريم فانه لم يبك عليك احد بكاءها ولم يحزن حزنها . فنزل عليها بعد سبعة ايام فاشتعل الجبل حين هبط نوراً وهي عند المصلوب تبكي ومعها امرأة كان ابرأها من الجنون . فقال ما شأنكما تبكيان قالتا عليك قال اني رفعني الله اليه ولم يصبني الا خير وان هذا شيء شبه لهم . وامرها فجمعت له الحواريين فبثهم في الارض رسلاً عن الله وامرهم ان يبلغوا عنه ما امره الله به . ثم رفعه الله اليه وكساه الريش والبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وطار مع الملائكة فهو معهم فصار انسياً ملكياً سماوياً ارضياً . فتفرق الحواريون حيث امرهم فتلك الليلة التي اهبطه الله فيها هي التي تدخن فيها النصارى . وتعدى اليهود على بقية الحواريين يعذبونهم ويشتمونهم فسمع بذلك ملك الروم واسمه هيرودس وكانوا تحت يده وكان صاحب وثن فقيل له ان رجلاً كان في بني اسرائيل وكان يفعل الآيات من احياء الموتى وخلق الطير من الطين والاخبار عن الغيوب فعدوا عليه فقتلوه وكان يخبرهم انه رسول الله فقال الملك ويحكم ما منعكم ان تذكروا هذا من امره فوالله لو علمت ما خليت بينهم وبينه . ثم بعث الى الحواريين فانتزعهم من ايدي اليهود وسألهم عن عيسى فاخبروه وتابعهم على دينهم واستنزل المصلوب الذي شبه لهم فغيّبه واخذ الخشبة التي صلب عليها فاكرمها وصانها وعدا على بني اسرائيل فقتل منهم قتلى كثيرة . فمن هناك كان اصل النصرانية في الروم . وقيل كان هذا الملك هيرودس ينوب عن ملك الروم الاعظم الملقب قيصر واسمه طباريوس وكان هذا ايضاً يسمى ملكاً . وكان ملك طباريوس ثلاثاً وعشرين سنة منها الى ارتفاع المسيح ثماني عشرة سنة واياماً » انتهى كلام ابن الاثير بحذف يسير

. وقعت في الكتاب اغلاط مطبعية لم نتمكن من اصلاحها عنا


CA
232.9
R39vA